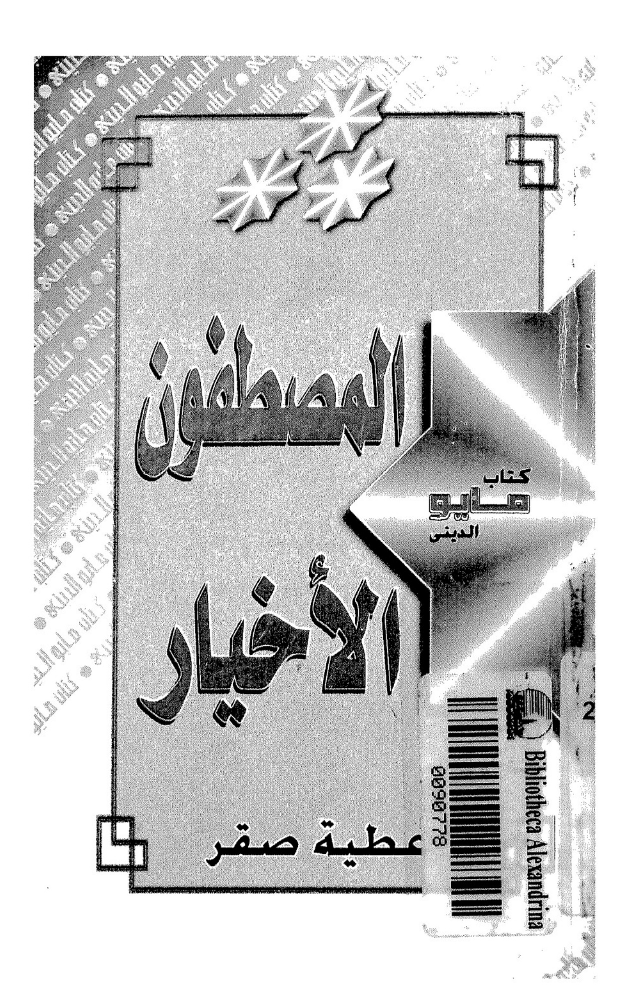
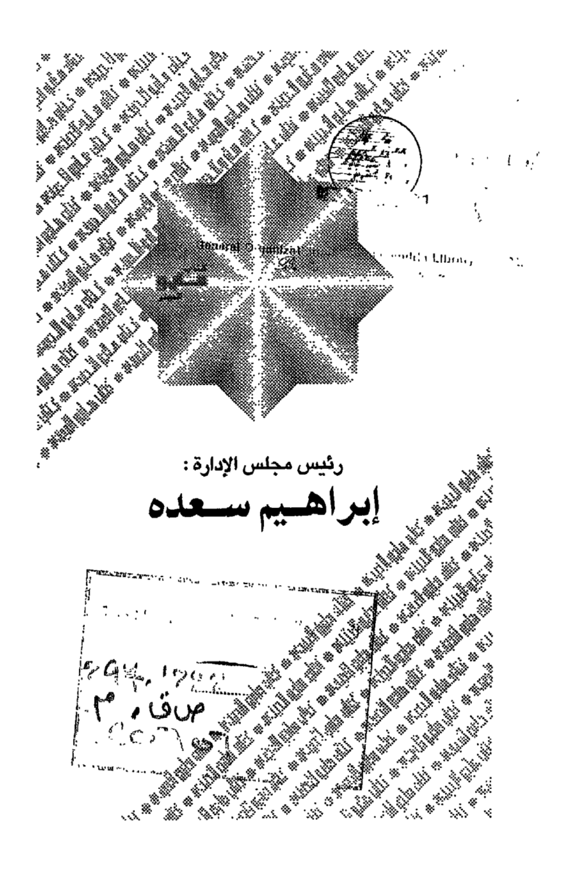
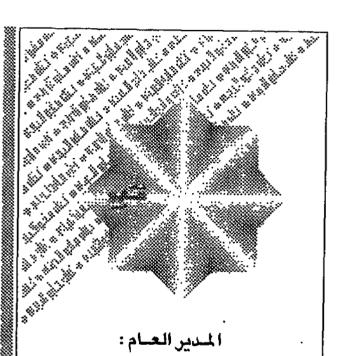

المصطفون
الأخيار
كتاب
مايو
الديني
عطية صقر
00900778
Bibliotheca Alexandrina



رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده



المدير العام :

علوى عامر

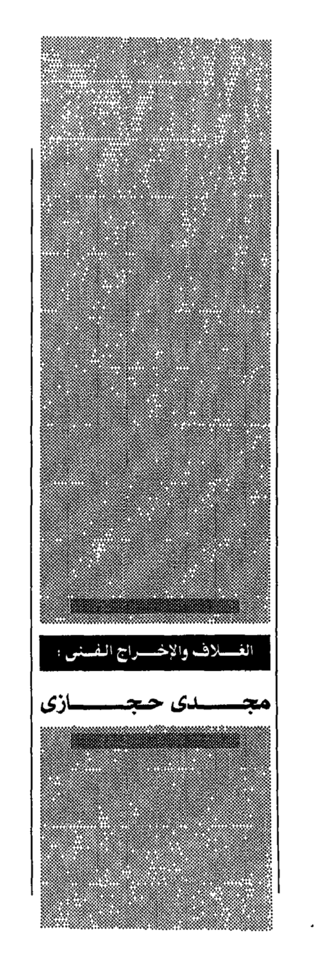
كتاب مايو الدينى

يصدر أول كل شهر عربى
عن دار مايو الوطنية
للنشر

■ دار مايو الوطنية للنشر ■

١٦ شارع المنتزة ـ الزمالك ـ القاهرة
ت : ٣٤٠٩٩٠٠ / ٣٤٠٩٩٠٧ / ٣٤٠٩٩٠٩
ص . ب : ١٢٥ الجيزة Fax : 3409046


المصطفون الأخيار
عطية صقر



الغـــلاف والإخـــراج الفـنى :
مجــــدى حجــــازى



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد :

فإن الأديان بوجه عام ، والإسلام بوجه خاص ، تتعرض لهجوم عنيف ممن حبسوا أنفسهم فى سجن المادة، وألحدوا فى أفكارهم حول الألوهية وما يتبعها من وحى ورسالات ، محاولين تفسير الوحى بأنه انعكاسات داخلية نتيجة لتأثيرات عضوية أو حالات نفسية ، ومنكرين أن تكون هناك نبوات أو رسالات تتلقى عن قوة خارجية ، أو عالم غير منظور ، زاعمين أن من تتحدث عنهم الكتب المقدسة إن هى إلا شخصيات وهمية ليست لها حقيقة تاريخية .



ولما كـان القـرآن الكـريم هـو أصـدق سـجل لإثبات الألوهية والوحى إمكانا ووقوعا ، ولإثبات الرسالة الإسلامية والـرسالات السابقة عموما ، كـانت طعـون الملحـدين ومن سـار فى ركـابهم موجهة إليـه بعنف ، متخذين من بعض قصصه وأخبـاره ذريعـة إلى نفى القـداسـة عنـه ، وعن الشخصيـات التى ذكـرت فيه بـوصف الأنبيـاء والمرسلين .

وسنحاول بعون الله وتـوفيقه أن ننفى الشبه التى علقت بأذهـان مـن تأثـروا بـالأفكـار التى حملتها إليهم الكتب والمطبوعـات المسمومة التى غـزت الأوساط الإسـلامية وشـدت إليها انتبـاه كثيرين من ذوى الثقافـة الدينيـة المحدودة ، أو المفتونين بكل غـريب يفد إليهم ، وبخـاصة حين يعـرض بأسـاليب مغـريـة وإخـراج جـذاب ، وتيسيرات واسعة ، الأمر الـذى زعزع ثقة بعض المؤمنين فى تـراثهم الدينى والأدبى بـوجه عـام ، فضعفت بـذلك عقيـدتهم ، وانحـرف بـالتـالى سلوكهم .







١ الحاجة إلى الرسل وما يجب لهم

لقد أرسل الله رسلا حدد مهمتهم وبين حكمة إرسالهم فى قوله تعالى : **﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾** (النساء ـ ١٦٥) ولم تخل أمة ذات شأن من رسالة كما قال سبحانه : **﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾** (فاطر ـ ٢٤)

وأصول دعوتهم واحدة كما قال سبحانه : **﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾** (النحل ـ ٣٦)

والرسالات ضرورية للبشر ، لا يغنى عنها العقل ، ذلك أن العقل وحده لا يستطيع أن يلم بكل حاجات الإنسان فى حياته ، فطاقته على الرغم من قوتها ضعيفة ، ومجاله على الرغم من اتساعه محدود ، وهو لا يملك من القوة



ما يستطيع أن يكبح بـه جماح الشهوات ، أو يصمد أمام المغريات ، وإلى جانب قصوره وضعفه لا يعلم ما سلف به الدهر ولا ما يخبئه المستقبل ، بل لا يستطيع أن يحدد ما يجب لله سبحانه من صفات الكمال ، ولا أن يعرف الغيب الذى ليس له وسيلة إلا السمع والوحى الذى يحمله الرسل .

ومن هنا كانت الرسالة رحمة بالإنسان ، تكمل نقصه ، وتقوى ضعفه ، وتصحح مفاهيمه. وهؤلاء الرسل الذين اختارهم الله لهداية الخلق هم الصفوة الممتازة من عباده ، كما قال سبحانه: ﴿ **الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس** ﴾ (الحج ـ ٧٥).



وقال بعد ذكر جماعة من الأنبياء : ﴿ **وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار** ﴾ (ص ٤٧)

وكان الرسل مصطفين وأخياراً لأنهم حملة أكرم رسالة ، ولا يليق بأكرم الرسالات إلا أكرم البشر ، ولأنهم فى مقام القادة والهداة ، ولا يتصدر القوم إلا أكملهم وأرفعهم فى هذه المهمة بالذات ، ومن هنا قال العلماء : يجب أن يتصف الرسل بأربع صفات أساسية هى : الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة .

لابد للرسل أن يكونوا صادقين ، فى دعوى الرسالة وفيما يبلغون ، وليس أدل على صدقهم من تأييد الله لهم بالمعجزات التى هى بمثابة قوله



تعالى : « صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى » ولو جاز عليهم الكذب، لكان تأييد الله لهم عبثا وهو منزه عنه ، ولكان هناك تناقض مع حكمة إرسالهم وهى الهداية إلى الخير ، والتناقض فى أفعال الله محال . ومع صدق الرسل هم أمناء ملتزمون لأوامر الله سبحانه ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولو لم يكونوا كذلك لسلب الله عنهم شرف الاصطفاء الذى ما كان ليعطيهم إياه لولا علمه بجدارتهم ، وأهليتهم له ، وقد أجمع العلماء على عصمة الرسل من الزيغ فى العقيدة والانحراف عن الفطرة السوية ، حتى قبل أن يحظوا بشرف الرسالة ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين** ﴾ (الأنبياء ـ ٥١) ولا تقع منهم كبيرة حتى لا تهتز ثقة الناس بهم ، بل ونجلهم عن الصغائر التى لا تليق بمقامهم ، فقربهم من الله يجعل مقاييس سلوكهم أشد دقة وأقوى ضبطا ، وما كان من تصرف يغيب ظاهره عن إدراك حكمته فهو من باب: « حسنات الأبرار سيئات المقربين ».



وعلى الرسل أن يبلغوا كل ما أنزل إليهم من ربهم كما قال سبحانه : ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾ (المائدة ـ ٦٧) فلا يجوز ، ولم يقع منهم كتمان أو تغيير ،



تحت تأثير إغراء أو تهديد ، قال تعالى : ﴿ **الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله** ﴾ (الأحزاب ـ ٣٩)

وقال : ﴿ **قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم** ﴾ (يونس ـ ١٥) . لابد للرسل أن يكونوا ذوى فطنة وذكاء ، لأنهم حكام وقادة ، وقضاة وساسة ، ومرشدون ومربون ، ومن كانت لهم هذه المهام لابد أن يكونوا على أعلى مستوى من الذكاء ، وبخاصة فى المواقف التى لا يسعفهم فيها الوحى ، فيجتهدون كما يجتهدون فى أمور الدنيا ، ورقابة الله ملازمة لهم فيما يصلون إليه من نتيجة . ومع وجوب اعتقادنا باتصافهم بهذه الصفات، فهم بشر تجوز عليهم كل الأعراض البشرية التى لا تؤدى إلى نقص فى مراتبهم العلية، قال تعالى : ﴿ **قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا** ﴾ (الإسراء ـ ٩٣) وقال : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ** ﴾ (الكهف ـ ١١٠) وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلىّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى بنحو ما أسمع،فمن قضيت له من حق أخيه فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار » رواه البخارى .





٢ القرآن أوثق المصادر

من المعلومات ما لا سبيل إليها إلا بالنقل والسماع ، كالألوهية وما يجب لها من صفات، وكأحوال اليوم الآخر ، وعالم ما وراء المادة بوجه عام .

وأهم المصادر التى نستقى منها هذه المعلومات هى : الوحى المنزل والروايات التاريخية المصبوغة بصبغة دينية ، وأخبار الأنبياء والمرسلين بالذات أخذت حيزا كبيرا من القرآن الكريم والسنة النبوية وأسفار العهدين الجديد والقديم وأخبار أهل الكتاب بوجه عام .

ولابد من إلقاء بعض الضوء على هذه المصادر حتى نصل من خلال ذلك إلى الحقيقة التى يجب الإيمان بها ، ونبين الزيف الذى يجب أن ننزه عنه ساحات الشخصيات الدينية التى



اصطفاها الله لحمل رسالته إلى الإنسانية .

أما القرآن الكريم فهو الصدق كل الصدق ، فى كل ما جاء به من عقيدة وشريعة وقصص وأخبار ، قال تعالى : ﴿ **وبالحق أنزلناه وبالحق نزل** ﴾ (الإسراء ـ ١٠٥) وما ورد فيه مما يتصل بالأنبياء والمرسلين يدل على حقائق تاريخية ثابتة لا يتطرق إليها أى شك أو احتمال ، ولا يجوز صرف ألفاظها عن معانيها الموضوعة لها من غير داع يدعو إلى ذلك ، فالقرآن كما يقول الله سبحانه : ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين** ﴾ (الشعراء ١٩٣ ـ ١٩٥)



وهو يستهدف من سرد قصص الأولين إثبات صدق الرسالة ، وتأكيد أن القرآن ليس من وضع محمد صلى الله عليه وسلم بل هو وحى من الله سبحانه ، قال تعالى بعد ذكر قصة نوح : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا** ﴾ (هود ـ ٤٩)

وبعد ذكر قصة زكريا ومريم : ﴿**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾ (آل عمران ـ ٤٤)

وبعد ذكر قصة يوسف : ﴿ **ذلك من أنباء**



الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ (يوسف ـ ١٠٢) . كما يستهدف قصص القرآن إلى جانب ذلك أخذ العبرة والموعظة فيما جرت به سنة الله فى خلقه على مدى العصور ، ويستهدف أيضا إحقاق الحق وإبطال الباطل مما يقع فى عقول الناس من تصورات حول النبوات وغيرها ، وفيه مع كل ذلك تثبيت لقلب النبى صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بوجه عام ليزدادوا قوة فى الدعوة وتنشرح صدورهم بالأمل فى تحقيق وعد الله لهم بالنصر ، اقرأ فى ذلك قوله سبحانه : **﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ماكان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾**



(يوسف ـ ١١١)

وقوله أيضا : **﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾** (هود ـ ١٢٠) وبعد أن سرد الله أسماء كثير من الأنبياء قال : **﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾**
(الأنعام ٩٠).

وليكن معلوما أن القرآن الكريم كما قال الله سبحانه : **﴿ هوالذى أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات**



فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعـون ما تشابه منه ابتغـاء الفتنة وابتغاء تأويلـه وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخـون فى العلم يقولون آمنا بـه ، كل من عند ربنـا وما يذّكـر إلا أولو الألباب ﴾ (آل عمران ـ ٧)

فبعض آياتـه محكمات واضحة المعنى ثـابتة الـدلالـة دائمـة الحكم ، وبعضهـا يشتبـه على القـارىء معنـاهـا ويصعب على الفهم إدراك مرمـاها لسبب أو لآخـر ، بحيث يظن لأول وهلة أن فى القرآن تضاربا وتناقضا .



ولعل من الحكمـة فى وجـود هـذا النـوع من الآيات أن يتميز المؤمن الكامل الإيمان عن غيره ، فـالـراسخون فى العلم بحكمـة الله يثبتـون على إيمانهم ، وأمـا غيرهم فيـدب الشك إلى قلـوبهم ويتخـذون ذلك ذريعـة إلى الانحـراف بمعـانى القرآن عن القصد ، والإلحاد فى الآيـات بوجه عام على غرار مـا جاء فى حكمـة ضرب الله للأمثـال فى القرآن كالبعوضة ونحوها : **﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمـو ن أنـه الحق من ربهم ، وأمـا الـذين كفروا فيقولـون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، يضل بـه كثيرا ويهدى به كثيرا ، ومـا يضل بـه إلا الفاسقين ﴾** (البقرة ـ ٢٦)

كما أن فى وجـود المشتبهـات فى القـرآن فتح المجـال للعقـول أن تفكـر وتبحث وتقـارن

وتستنبط ، وهذا أسلوب من أساليب التربية العلمية وضعه العليم بخلقه ، لأمة لابد لها فى مستقبل حياتها الممتدة إلى نهاية الدنيا ، أن تتدرب على الاجتهاد فى النصوص المتناهية لاستخراج أحكام لأحداث لا تتناهى ، وكانت الآيات المحكمات هن أم الكتاب أى صمام الأمن المانع من إنحراف الفكر ، كلما زاغ به الهوى عطفته إلى طريق الحق ، وكلما غشيته ظلمة الحيرة والشك التمس النور فى ضوئها ومناراتها المضيئة .



والمفروض فى قارىء القرآن أن يقرأه ، لا لمجرد تلاوته فقط ، ولا بقصد حفظه دون شىء سواه ، ولكن يقرؤه للتدبر والفهم ، ولاشك أنه عند التلاوة ستصادفه آيات تتحدث عن الأنبياء والمرسلين ، تستوقف نظره وتثير انتباهه ، ولا يهدأ له بال حتى يجد جوابا لسؤاله الملح عليه فيما يمس عصمة الأنبياء بالذات .

وفى هذه الحالة لا ينبغى التسرع بإصدار الحكم على هذه الآيات المشتبهات ، ولا أن تفسر بالرأى المجرد الذى قد يستغله فكر متمكن فى الذهن ، أو شبهة من الشبهات التى امتلأ بها الجو فى هذه الأيام ، فقد يسلم ذلك التسرع إلى زعزعة الثقة بالقرآن أو بالأنبياء ، وهذا هو ماتستهدفه التيارات الإلحادية بأساليبها



الضـاغطـة على العقـول التى تعشـق التحـرر والاستقـلال بـالـرأى ، كما يـوهم بـه الشبـاب بالذات .

روى أحمد بسنده عن عمـرو بن شعيب عن أبيـه عن جـده قـال : سمع رسـول الله صلى الله عليه وسلـم قومـا يتدارءون ، أى يتجـادلون فى القـرآن ، فقال : « إنما هلك من كـان قبلكم بهذا ، ضربـوا كتـاب الله بعضـه ببعض ، وإنما أنـزل كتـاب الله ليصدق بعضـه بعضـا ، فـلا تكذبـوا بعضه ببعـض ، فما علمتم منه فقـولوا بـه ، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه » .





٣ منزلة السنة النبوية

السنة النبوية ، هى كل ما صدر عن النبى صلى الله عليه وسلم من فعل أو قول أو وصف أو تقرير ، مصدر من المصادر الأساسية للتشريع بوجه عام ، كما أنها أحد المصادر التاريخية لما وقع فى العصور السابقة على الإسلام ، ذلك أنها وحى من الله سبحانه ، كما أن القرآن وحى منه ،غير أن النبى صلى الله عليه وسلم عبر عنه بلفظه ، وليست له خاصية الإعجاز الموجودة فى القرآن ، قال تعالى : ﴿ **ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى** ﴾ (النجم ـ ٢ـ ٥)

والسنة مبينة للقرآن وشارحة له ومقررة لأحكام لم ينص عليها فيه ، قال تعالى :



﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم﴾ (النحل - ٤٤) .

ونحن مأمورون باتباع ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : **﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾** (الحشر - ٧) وقوله : **﴿ قل أطيعوا الله والرسول ﴾** (آل عمران - ٣٢) ولما جاء فى الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود بسند صحيح : ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم .



وردُّ السنة القاطعة كرد القرآن يؤدى إلى الكفر .. وجزى الله أئمة الإسلام خيرا ، حيث عكفوا عليها رواية ودراية ، جمعا وتدوينا وترتيبا وتصحيحا ، ونقدا وتوضيحا ، واستنتاجا واستنباطا ، وروى فيهم: « يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » حسن لغيره (١)

وكان فيما جاءت به السنة حديث عن بعض الأنبياء والمرسلين ، قد يطول هذا الحديث وقد

(١) روى عن كثير من الصحابة ، على وابن عمر وابن عمرو وابن مسعود وابن عباس وجابر بن سمرة ومعاذ وأبى هريرة وقد كثرت طرقه ، غير أنها كلها ضعيفة ، إلا أن كثرتها قوتها ورفعت الحديث إلى مرتبة الحسن (مقدمة القسطلانى) .



يقصر ، وربما يكــون فيـه مـــا يمس عصمتهم فيقف القــارىء لـه حائرا مــاذا يصنع أمـام مـا اعتقـده فيهم مِنْ بُعْدٍ عن كـل ما يمس ســاحتهم الطاهـرة الشريفة ، كما يحدث له ذلك عنـد قراءة بعض آيات القرآن الكريم ، فماذا يكون موقفه ؟

وقبل الإجابــة على ذلك أود أن أبين أن القرآن الكريم وصل إلينــا بطريق التــواتر الـذى يورث الجزم بثبوتــه فى جملته وتفصيلـه ، وصدق فيــه قول الله سبحانه : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ (الحجر ـ ٩) .



وقـد يسر الله لكثير من المسلمين حفظـــه عن ظهر قلب ، فهو فى صدورهم مصـون ومنتقل من جيل إلى جيل تلقيا وسماعا ، أقوى مما هو متنقل كتابة ونسخا ، وقـد باءت بالفشل كل المحاولات الـدنيئـة لتغيير شىء فيه أو تبـديلـه ، وبلغ من حـرص المسلمين على سلامــه أن منعـوا كتابتــه بالأسلوب الخطى الذى يتغير من عصر إلى عصر، ومن بيئـة إلى بيئـة، حتــى يظل رسمــه العثمانى الأول وثيقة رسمية يرجع إليها عند الاختلاف .

أمـــا السنة النبـوية فلتــأخر العهـد بكتابتهـا وتدوينهـا ولاعتمادها على التلقــى والسماع زمنا طـويلا ، تعـرضت فى بعض الأزمــان إلى تغيير فى المروى ، أو نسبــة شـىء إلى النبى صـلى الله عليـه وسلم لم يقله ، سواء أكــان ذلك إضافة إلى بعض



ما ورد ، أم اختلاقا من أساسه ليس فيه شىء منسوب إليه عليه الصلاة والسلام .

ونحن نعلم أن الخلافات السياسية والعقائدية كانت من أهم العوامل المساعدة على ذلك ، وما أيسر ما كان يعمد إليه بعض الأطراف المتنازعة من نسبة آرائهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم حتى يكون لها الغلب دون الاهتمام بقوله صلى الله عليه وسلم : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » رواه البخارى ومسلم .



وعلى الرغم من جهد أئمة الحديث فى وضع منهج النقد الصحيح للروايات والمعلومات، فإن بعض من لا يتحرجون ، يعمدون إلى رواية الأحاديث الضعيفة ، التى إن جاز عند بعض العلماء ذكرها فى مقام الترغيب والترهيب فلا يجوز ذكرها ولا الاعتماد عليها فى العقائد ، ومنها ما يتصل بالنبوات .

وقد راجت سوق القصص فى بعض العهود ، حيث كان يتعمد بعض المحترفين سرد الغرائب والعجائب جذبا للقلوب حوله ، والطبيعة الإنسانية يجذبها كل غريب ، وكم للمنصفين من ولاة وغيرهم مواقف استنكار لما يقومون به ، للحيلولة دون تضليل العقول ، ومنعا للتكسب عن هذا الطريق الذى قد يسلم إلى الزلل والشطط فى الفكر أو السلوك . وكان فيما يستعينون به



قصص الأنبياء وغرائب التاريخ ، التى قد ينسب بعضها إلى النبى صلى الله عليه وسلم حتى تأخذ صفة القداسة وتحظى بالقبول .

فماذا يكون موقفنا أمام المتشابه فى القرآن والسنة ؟

يجب أولا أن نستبعد السنة الموضوعة والضعيفة ، ولا نعتمد إلا على ما يفيد القطع أو رجحان الظن بثبوته عن النبى صلى الله عليه وسلم . فإن وجد فى القرآن أو فى هذا النوع من الأحاديث ما يتعارض ظاهره مع عصمة الأنبياء ، وجب صرف اللفظ عن هذا الظاهرة إلى معنى يتفق مع العصمة ، والألفاظ العربية فيها من المرونة من حيث الحقيقة والمجاز والاشتراك وغيرها متسع للوصول إلى معنى يبعد بآيات الله وأحاديث رسوله عن التضارب .



فإن استحال صرف اللفظ عن ظاهر معناه المتناقض مع العصمة.. التمسنا لذلك مخرجا مما قال به بعض العلماء من كون ما نسب إليهم حدث قبل نبوتهم ، أو اتفق أحيانا مع شرائعهم ، ولا شك أن الشرائع فيها بعض الاختلاف فى غير الأصول ، كما قال سبحانه : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾ (المائدة ــ ٤٨) . أو أن ما حدث منهم هو صورة مخالفة بالنسبة لمقاييسنا نحن ، وهى منهم من باب حسنات



الأبرار سيئات المقربين » .

ومهما يكن من شىء فلا بد من الانتهاء إلى تقرير نزاهتهم عن المعاصى أو التصرفات التى تسىء إلى سمعتهم أو تفقد الثقة بهم ، حتى لا يكون هناك تعارض وتناقض مع شهادة الله لهم، ومع اصطفائهم لحمل رسالته ، والله أجل وأعلى من أن يكون فى أفعاله وأقواله وسائر شئونه ما يتنافى مع جلال ألوهيته ، ومع رحمته بعباده .





٤ أخبار أهل الكتاب

تعد الكتب التى يقدسها اليهود والنصارى من المصادر التى يستقى منها المؤرخون للأديان كثيرا من معلوماتهم، ونود أن نسترعى الانتباه إلى أن هذه الكتب ليست هى المنزلة من عند الله على رسله، لقد فقد أكثرها وشوه ما بقى منها، وعندما جاء الإسلام كان التحريف قد دخلها فيما جاءت به من أوصاف النبى صلى الله عليه وسلم لصرف الناس عن الإيمان بالدين الجديد، وبالنبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل، قال تعالى : ﴿الذين آتيناهم



الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ (البقرة ١٤٦) وقال : **﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾** .

(البقرة ـ ٧٩)

وقد اطلع بعض المسلمين على هذه الكتب قبل التحريف، فقد روى البخارى عن عطاء بن يسار أنه قال : لقيت عبدالله بن عمرو، فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة، فقال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة كصفته فى القرآن : يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين، أنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، إلى آخر الحديث.



والكتب الموجودة بين أيدينا مكتوبة بأيدى



البشر لكنهم يعتقدون أنها معصومة عن الخطأ، مع أن الدراسة أثبتت تضاربها، والله منزه فى كلامه عن التضارب، قال تعالى : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾ (النساء٨٢) ومن هنا رفعت الثقة التاريخية والقداسة الدينية عن أخبارها وتشريعاتها(١).

ونظرا للأمية التى سادت عرب الجزيرة، وبعد عهدهم بالرسالات ، كانوا يستقون كثيرا من معلوماتهم من أهل الكتاب الذين كانوا يقيمون فى بعض أنحاء الجزيرة، وجاء الاسلام، وهذه المعلومات تشكل جزءا كبيرا من معارفهم عن الدين والنبوات، وأراد بعضهم أن يعرف موقف الإسلام منها، فحدث ـ كما أخرجه أحمد فى مسنده ـ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ على النبى صلى الله عليه وسلم كتابا أصابه من بعض أهل الكتاب، فقال له : «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها

(١) اقرأ كتاب « التوراة والإنجيل والقرآن والعلم » للكاتب الفرنسى « موريس بوكاى » نشر ترجمته دار الكندى ببيروت ١٩٧٨ م



بيضـاء نقيـة... إلى أن قال: والـذى نفسـى بيده لو أن موسـى كان حيا مـا وسعه إلا اتباعى» ومعنى متهوكون .. متحيرون ومترددون.

والحديث يرشـد بهذا إلى وجوب الاعتماد على القـرآن الكـريم كأساس أول للشريعـة وأخبـار الأولين. ومع ذلك جاء عنه صلى الله عليه وسلم ـ كما أخرجـه البخارى ـ قـوله : «لا تصـدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولـوا آمنا بالله وما أنزل إلينـا وما أنـزل إلى ابـراهيم» إلى آخر الآيـة، كما أخرج البخارى أيضا قـوله صلى الله عليه وسلم: «بلغوا عنى ولو آيـة، وحدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج، ومن كـذب على متعمدا فليتبـوأ مقعده من النار» وهو يشير بهذا إلى مصادر المعرفة الثلاثة، وهى : القـــرآن الـــذى يجب نشره وتبليغـــه، للاطمئنـان على صدقه والثقة بثبـوته، والحديث النبوى الذى تجب الدقة والحيطة عند تلقيه وعند روايتـه، ومـا جـاء عن بنى اسرائيل من السماح بـروايته، وذلك فى نطـاق ما جـاء عنه صـلى اللـه عليه وسلم ـ كما رواه أحمد وأبـو داود ـ إن كان





حديثهم حقا فلا نكذبهم فيه، وإن كان باطلا فلا نصدقهم فيه، وما لا نجزم بصدقه أو كذبه فنحن فى حل من الأخذ به أو رفضه، وفى ضوء هذا المقياس أصاب عبدالله بن عمرو بن العاص يوم اليرموك زاملتين .. أى حمل بعيرين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما.

وقد انتهز بعض المسلمة من أهل الكتاب هذه الفرصة فأكثروا من الروايات التى شدت انتباه الكثيرين إليها لغرابتها، لدرجة أن بعض علماء التفسير ملأوا بها كتبهم، كمقاتل بن سليمان (١٥٠ هـ الذى قال عنه أبو حاتم : انه استقى علومه بالقرآن من اليهود والنصارى وجعلها موافقة لما فى كتبهم كما نقله ابن خلكان فى الوفيات، وكالثعلبى النيسابورى (٤٢٧ هـ) فى كتابه «العرائس» فى قصص الأنبياء، وكالشيخى البغدادى المعروف بالخازن (٧٤١ هـ) فى كتابه: «لباب التأويل فى معانى التنزيل» الذى تأثر فيه بتفسير الثعلبى، وكان مغرما بالغرائب التى عثر عليها فى دار الكتب بدمشق وكان خازنا لها.





لقد كان لهذه الاسرائيليات دور كبير فى تشويه الفكرة عن الأنبياء والمرسلين، وعن الأديان عامة، والإسلام الذى تنشر فى كتب أهله هذه المعلومات، ومن هذا المنفذ وجه إلينا الأعداء الطعنات، وتشكك الذين لا يقفون على أرض صلبة من العقيدة القوية والثقافة الدينية الصحيحة.



ولنا فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة مقنع لمن أراد أن يتزود بالأخبار الصحيحة عن الأنبياء والعهود الغابرة، وابن مسعود رضى الله عنه قال ــ كما رواه أحمد وغيره ـ لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد أضلوا أنفسهم، إما أن يحدثوكم بصدق فتكذبونهم، أو بباطل فتصدقونهم.

وأقوال المفسرين للقرآن الكريم، على جلالة قدرهم، ليست وحيا منزلا، ولا حجة يجب التقيد بها، فهم بشر يخطئون ويصيبون، والطعن فى المفسر، وهو رجل عادى ـ أهون من الطعن فى نبى يجب تنزيهه عما لا يليق به كمبلغ



عن الله، اختاره واصطفاه، ونقد المرويات سندا ومتنا مبدأ إسلامى أصيل.

روى أحمد بإسناد جيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه».



كما روى أحمد عن على رضى الله عنه : إذا سمعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا فظنوا به أنه الذى هو أهدى وأهنأ وأتقى .



٥ منزلة الأنبياء فى الإسلام

قد يقول قائل : ولم هذا الاهتمام الكبير بالأنبياء السابقين، وقد خلت عهودهم وانتهت رسالاتهم، ألا يكفى أن يشغل المسلمون بنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، ينشرون دعوته، ويوضحون للناس ما تشابه من هديه وسيرته، ويحمون الثغور من الطعنات التى يوجهها الأعداء نحو الإسلام بالشبهات والافتراءات ؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول : إن الإسلام فى عالميته يشمل الوجود كله، ما غبرت به الأزمان السحيقة، وما تتسلسل به الحلقات إلى نهاية هذا العالم، بل يمتد ليصحبه يوم يقوم الناس لرب العالمين، ومحمد صلى الله عليه وسلم



معروف عند كل الأنبياء السابقين، وسيكون يوم الحشر ملاذ الناس أجمعين، ذلك أن الله سبحانه أخذ الميثاق على الأنبياء أن يؤمنوا به عليه الصلاة والسلام، ويوصوا أقوامهم بذلك إن أدركوا عهده. قال تعالى: **﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾** (آل عمران ٨١)



وكيف لا يعنى المسلمون بمعرفة من زكاهم الله للإيمان بمحمد والشهادة معه برسالته؟ وسيكون هو وأمته شهداء على الرسل كيف بلغوا رسالات ربهم، وعلى أممهم كيف قابلوا هذه الرسالات، والشهادة فى شرفها ومسئوليتها تستلزم العلم بأحوال هؤلاء علما صحيحا وافيا يؤهل لهذه المهمة الخطيرة. قال تعالى:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (البقرة ١٤٣) وروى البخارى ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن مسعود: «اقرأ علىّ» فقال له . أقرأ عليك وعليك



أنزل؟ قال: «نعم إنى أحب أن أسمعه من غيرى، فقرأ عليه سورة النساء حتى أتى إلى قوله تعالى: **﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾** فقال له «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان، والله يعلم أكانت دموعه فرحا بهذا الشرف أم اشفاقا من ضخامة المسئولية، التى تجاوزت أمته إلى الأمم الأخرى جميعا، كما جاء فى إحدى الروايات.

ويبدو الشرف كذلك مع المسئولية عندما ينتهى إليه مطاف الناس فى المحشر وهم يستحثون الأنبياء واحدا بعد الآخر أن يشفعوا لهم، فيعطى الله نبيه المقام المحمود بالشفاعة العظمى لأمته وللناس جميعا.



إن الطعن فى أى نبى طعن فيهم جميعا، ذلك أن الرسالات كلها عقد واحد نظامه الدعوة إلى الله وهداية البشر إلى أقوم الطرق، والأنبياء جميعا أخوة فى أسرة واحدة وإن كان الله فضل بعضهم على بعض، ومحمد صلى الله عليه وسلم أحد أفرادها، وإن كان أفضلهم جميعا، فهو سيد ولد آدم كما صح فى الحديث.

ومن واجب الأخ أن يوفر كل احترام لسائر اخوته، صح فى الحديث قوله عليه الصلاة



والسـلام: «الأنبيـاء أخوة من عـلات، أمهـاتهم شتى ودينهم واحـد» والأخــوة من العـلات هم المولــودون من أب واحــد وأمهـات متعــددة، والأنبياء يعتزون بهذه الأخـوة التى حشدهم الله تحت لـوائهـا ليحتفلـوا بـه ليلـة الإسراء فى بيت المقدس، ويـرتضوه إمامـا لهم، والتى أرصد بها جماعـة منهم فى طــريق معـراجـه ليستقبلـوه مـرحبين بالنبى الصـالح والابن الصـالح والأخ الصالح، كما كـان يعتز هو بهذه الأخـوة، فدافع عن بعض إخـوته إلى حـد هضم فيه حق نفسـه، وذلك منعا للفتنة، ولم يزاحم أحدا منهم فى فضل آثره الله به احتراما للرحم التى تصل بينهم.



روى مسلم أن يهوديـا كـان يعرض سلعـة فأعطى بها شيئـا كرهـه أو لم يرضـه، فقال : لا والذى اصطفى مـوسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصـار فلطم وجهــه وقـال : تقـول هـذا ومحمـد رسـول اللـه بين أظهـرنـا، ولما شكـا اليهودى إلى النبى غضب وقـال: «لا تفضلوا بين أنبياء اللـه، فإنه ينفخ فى الصــور فيصعق من فى السمـوات ومن فى الأرض إلا من شـاء اللـه، ثم ينفخ فيـه أخرى فأكـون أول من بعث أو فى أول من بعث ، فإذا مـوسى آخذ بـالعرش فـلا أدرى



أحـوسب بصعقته يـوم الطـور أو بعث قبلى، ولا أقول إن أحدا أفضل من يونس بن متى».

وجـاء فى رواية للبخـارى ومسلم أن عفريتـا تفلت على النبى صلى الله عليـه وسلم ليقطع عليه الصلاة ، وبعـد زجره عدة مـرات أمكنه اللـه منه وأراد أن يربطـه إلى سارية من سـوارى المسجد، ولولا تذكـره دعوة أخيه سليمان: ﴿**رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحـد من بعدى**﴾ (ص ٣٥) لأصبح موثقا يلعب به صبيان أهل المدينة.



وانطلاقـا من هذه الأخوة ووصـلا للرحم بين الأنبيـاء، أمـر الإسلام بـالإيمان بجميع الـرسل دون تفريق بين أحـد منهم، كما أمر اللـه نبيه أن يقتدى بهداهم، وأن يتبع ملة ابراهيم، وكان عليه الصلاة والسـلام يحب موافقـة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بغيره.

ثبت فى الصحيحين أنـه لما قـدم المدينة وجـد اليهـود يصومـون عاشـوراء كما صام مـوسى شكرا للـه على نجاتـه وقومـه من الغـرق، فقال: «فنحن أحق وأولى بمـوسى منكم» فصـام وأمـر بصيامه.

إن الإيمان بـالـرسل وتـوفير الاحترام لهم والـدفـاع عنهم واجـب على كل مسلم، وهـو

إنصـاف من الإسلام وتقـدير لـدورهـم الكبير فى خدمـة الانسـان، ومن القيم الدينية إنـزال الناس منـازلهم، والدفـاع عن الأبـرياء منـهم، والقـرآن الكريم خط دفـاع قوى يحرس الدين بوجـه عام، ويهيمن على الكتب السابقـة، مصدقـا لأصولها، ومصـححـا لما فيهـا من تحريف، وبـاعثـا للقيم الأصيلة التى تكـاثف عليها غباء القوم، أو لـوثها دخان الشكوك والريب، وتلك سمة الدين العالمى الـذى ارتضاه اللـه للناس جميعـا، وبهذا يتضح السر فى الاهتمام بـالحديث عـن السـابقين من الأنبيـاء، فهـو حـديث عن ركن كبير من أركـان الإسلام.





٦ عصمة الملائكة

لابد لتفصيل القول عن عصمة الأنبياء أن نلقى نظرة على عصمة الملائكة، ذلك أنهم كالأنبياء مصطفون من الله كما قال سبحانه: ﴿**الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس**﴾ (الحج ٧٥) فهم الوسطاء بين الله والرسل لتبليغ الوحى إليهم، والمسخرون لتأييدهم ضد أعدائهم، والمؤمنون لطريق دعوتهم، والمنفذون لأوامر الله وتدبيره للكون بوجه عام، قال تعالى: ﴿**الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع**﴾ (فاطر ١) وقال: ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه**

مايشـاء﴾ (الشورى ٥١) وقـال: ﴿**إذ يوحى ربك إلى الملائكــة أنى معكم فثبتــوا الــذين آمنــوا**﴾ (الأنفـال ١٢) وعـدد الملائكـة كثير كما يقول سبحانه: ﴿**ومايعلم جنود ربك إلا هو**﴾ (المدثر ٣١).

والإيمان بوجـودهم واجب، لأن الله سبحـانه أمر بـذلك، والعقل لا ينكر وجـودهم، ووجودهم كنوع ممتـاز من الخلق معروف منذ القـدم، قال تعالى حكاية لقول قـوم نوح لما كذبوه: ﴿**ما هذا إلا بشر مثلكم يـريـد أن يتفضل عليكم، ولـو شاء الله لأنزل ملائكة**﴾ (المؤمنون ٢٤) وقال عن النسـوة فى مجلس امرأة العـزيز عندمـا أطل عليهن يوسف عليه السلام: ﴿**حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم**﴾ (يوسف ٣١) وقال عن كفار مكة: ﴿**وقالوا لـولا أنزل عليه ملك**﴾ (الأنعام ٨).



والذين ينكـرون وجود الملائكـة قوم أعمتهم المادية لا يؤمنون إلا بما تـدركه حواسهم، وزعم بعضهم أنها هى القــوى المنبثـة فى الكــون من مغناطيسيـة وكهربـاء وضوء ومـا إليها، ومنهـا الفيروسات التى لا ترى بالعين المجردة والمسببة لكثير من الأمراض.

ونقـول لهؤلاء: إن انكارهم لـوجود الملائكـة ليس دليلا على عـدم وجودهم، والجهل بـالشـىء



ليس دليلا على عدمه، وكانت الفيروسات والكهرباء موجودة قبل أن يكتشفها الناس، ولا داعى لتأويل المراد بالملائكة، فالعقل لا ينكر وجودهم على النحو الذى أخبرنا به القرآن الكريم.

ورؤيتهم ممكنه ، فهم قادرون على التشكل بالأشكال المختلفة، وقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم جبريل فى صورته الحقيقية كما رآه فى صورة رجل جاء يسأل عن الإيمان والإسلام والساعة فى الحديث المعروف، وكان أسيد بن حضير يقرأ القرآن ليلا فرأى مثل الظلة فوق رأسه فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى مارآها، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : تلك الملائكة تستمع لك، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر عنهم، كما رواه البخارى ومسلم، والإيمان بعصمتهم واجب، فهو تأمين لصدق الوحى الذى بلغوه للرسل وصدق ما ورد عنهم فى القرآن الكريم فهم بحكم طبيعتهم النورانية، وبحكم اصطفاء الله لهم لا تجرى عليهم قوانين الطبيعية البشرية، ولا يجوز أن تقع منهم معصية لله سبحانه، قال تعالى عنهم فى قصة خلق آدم: ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس**





لك﴾ (البقرة ٣٠) وقال: **﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾** (الأنبياء ١٩ـ ٢٠) وقال فى وصف النار: **﴿عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾** (التحريم ٦) وقال: **﴿والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾** (النحل ٤٩ـ ٥٠).

وقد يعترض على عصمتهم من الخطأ بحادثين، أولهما عصيان إبليس لأمر ربه بالسجود لآدم حيث قال سبحانه: **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾** (البقرة ٣٤) ذلك أن الأمر موجه للملائكة فامتثلوا، واستثناء إبليس يدل على أنه منهم، ويجاب على ذلك بجواب لغوى معروف وهو أن الاستثناء منقطع بمعنى أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه وهو الملائكة، لكن بقى أن يقال: إذا لم يكن ابليس من الملائكة فلا يكون مأمورا بالسجود، وإذا لم يكن مأمورا فكيف يعاقبه الله على الامتناع منه؟ ويقال فى الجواب: صحيح أن إبليس ليس من الملائكة ولكنه مع ذلك مأمور بالسجود، لأن الأمر كان لجميع الحاضرين





الشاهدين لنفخ الروح فى آدم ، وكان إبليس مع الملائكة حاضرا شاهدا، وخص الخطاب الملائكة لأنهم الكثرة الغالبة.

هذا، وقد نص القرآن الكريم على أن ابليس من الجن فى قوله تعالى فى سورة الكهف: **﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾** (الكهف ٥٠) ذلك أن العالم غير المنظور يطلق عليه اسم الجِنّة ، والجن هو الذى يعطى معنى الاستتار، وهو صنفان: صنف خلق من نور وهم الملائكة، وصنف خلق من نار وهم الجن وأبوهم إبليس، والأولون بحكم طبيعتهم النورانية معصومون من الخطأ، والآخرون بحكم طبيعتهم النارية كما قال سبحانه: **﴿خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾** (الأعراف ١٢) معرضون للخطأ فمنهم المسلمون ومنهم القاسطون كما ذكر القرآن الكريم فى سورة الجن ، وبهذا يسقط الاعتراض بعصيان ابليس على عصمة الملائكة.



الحادث الثانى حادث هاروت وماروت المذكورين فى قوله تعالى: **﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن**



فتنة فلا تكفر﴾ (البقرة ١٠٢) وقد جاء فى كتب التفسير أنهما ملكان هبطا إلى الأرض وفتنا فعاقبهما الله بتعليقهما من أرجلهما.

ونقول : إن كلام المفسرين فى هذا المقام ـ على جلالة قدرهم ـ ليس حجة ،فهو منقول عن تراث البابليين وشروح اليهود وكتب النصارى، وأقرب الأقوال عنهما (١) أنهماشخصان كانا يتمتعان بمنزلة كبيرة فى العلم والسلوك فتن الناس بهما فأطلقوا عليهما اسم الملكين، من باب التشبيه والمجاز، وهو إطلاق معروف قديما وحديثا، حيث يطلق الآن على الشخص الممتاز اسم ملاك.



وفى الأساطير البابلية شخصان باسمين مقاربين لهاروت وماروت أعجب الناس بهما فأطلقوا عليهما اسم ملكين، بل زاد الإعجاب فاعتقدوا أنهما آلهة، وقد أقبل اليهود على تعلم ما تركاه من حكمة وسحر وشغلوا به عن كتاب الله الذى نبذوه وراء ظهورهم .

---

(١) إن الناس كانوا قد فتنوا بالسحرة حتى رفعوهم إلى مقام النبوة فانزل الله ملكين يعلمان الناس السحر ليفرقا بينه وبين النبوة ويحذروهما من الفتنة به وبهما .



٧ آدم عليه السلام

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون﴾ (البقرة ٣٠) تدل هذه الآية وغيرها على أن الله خلق الأرض وما فيها قبل أن يخلق آدم، وأنها فى حاجة إلى من يسوس أمرها بعد أن فشل من سكنها من قبله، ولو كانت الملائكة تصلح لسياستها لولاهم أمرها، فأراد الله سبحانه أن يسلمها لمخلوق من نوع آخر ليس فيه عناصر الخير المحض ولا الشر المحض، فخلق آدم من مادة الأرض ليستطيع التكيف مع ظروفها والتفاعل مع عناصرها، يتقلب فيها بين



النور والظلام والجوع والشبع والعطش والرى والصحة والمرض والراحة والتعب والحب والبغض والطاعة والعصيان والتذكر والنسيان وسائر المتقابلات، ولو لم يكن آدم كذلك لما صلح للحياة على الأرض هو وذريته، ولعل مما يشير إلى ذلك قوله سبحانه: **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم﴾** (هود ١١٨ ، ١١٩) وقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم وغيره: « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم».



وفيما يشبه حفل التكريم لهذا المخلوق الجديد الذى أظهر امتيازاً على الملائكة بمعرفة الأسماء التى عرضت عليهم، أمر الله جميع من شهدوا تفوقه من ملائكة، وغيرهم بالسجود لآدم تحية وإكبارا، واقتلاعا لما فى أنفسهم من الاعتداد بأصل ما خلقوا منه، وبالمكانة التى ما كانوا يظنون أن يزحمهم فيها أحد غيرهم، فسجدوا إلا إبليس الذى صرح باعتداده بنفسه فكان من الكافرين.

وقبل أن يعطى الله مقاليد الحكم فى الأرض لآدم، أجرى عليه تجربة يمتحن بها صلاحيته لهذه المهمة، لا ليعلم شيئا خفى عنه، أو يكمل



نقصا فاته فيه، فهو سبحانه العليم الحكيم، ولكن ليظهر لمن كانوا لا يعلمون أن ما خلقه الله وسواه ونفخ فيه من روحه جدير بما خلق له، ومن باب التوضيح فقط فالفرق كبير، أقول إن هذا الامتحان يشبهه ما يجرى من التجارب واللمسات الأخيرة على أى اختراع جديد أو عمل ممتاز قبل أن يطرح للتداول.



فبعد أن خلق الله من جنس آدم حواء على نحو ليس فيه دليل قاطع يعتمد عليه، وذلك ليسكن إليها جسديا وروحيا ويتعاونا على إنجاب الذرية التى ستحكم الأرض، ووضعهما فى بيئة أو مملكة مصغرة لإجراء التجربة وألقى إليهما التعليمات كنموذج للسياسة المستقلة، فأسكنهما فى جنة المأوى أو فى بستان على مرتفع من الأرض فى موقع جميل .وهنا بدأ نظام التجربة فى مرحلتها النظرية فقال سبحانه: ﴿**ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾ (الأعراف ١٩) فما الذى حدث؟

جاء دور التجربة فى مرحلتها العملية، فوسوس لهما الشيطان بطريقة لا يعلمها إلا الله، حتى أكلا من الشجرة التى لا يعنينا معرفة اسمها أو نوعها، فظهرت عليهما آثار المخالفة بسرعة ﴿**فبدت لهما سوءاتهما**﴾ وبعد محاكمة



رحيمة من الله: ﴿**ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين**﴾ (الأعراف ٢٢) اعترفا بأنهما ظلما أنفسهما وطلبا من الله المغفرة ﴿**ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**﴾ (طه ١٢٢) وبهذا تمت التجربة ونجحت، وهنا صدر أمر الله لهما بمباشرة سلطانهما فى الأرض: ﴿**قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى**﴾ (طه ١٢٣). إن آدم بتلقى الأوامر من الله مباشرة نبى، وبسياسة أهله فى الأرض رسول، اصطفاه كما اصطفى نوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين.



وهنا يقال : كيف يكون نبيا معصوما وقد خالف أمر ربه وقال الله فيه: ﴿**وعصى آدم ربه فغوى**﴾ (طه ١٢١) وليس هناك جواب أحسن من جواب الله سبحانه حيث يقول: ﴿**ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما**﴾ (طه١١٥) فلا معصية ولا مؤاخذة مع النسيان، غير أن الله سمى ذلك معصية لأنها على صورتها، وآخذه لأن مقام النبوة غير مقام عامة الناس، وللحبيب مع حبيبه منزلة لا تكون لغيره.

ولعل آدم ظن صدق إبليس فى قسمه فما جرب من قبل كذبا ولا خداعا، أو ظن أن النهى



هو عن خصوص هذه الشجرة، لا عن جنسها ونوعها، ومع ذلك فإن هذا الامتحان كان قبل أن يهبط إلى الأرض وقبل أن يصير رسولا مسئولا عن رسالته، ولله فى هذه التجربة حكمة يجب أن نمسك ألسنتنا عن الخوض فيها كما جاء فى الحديث المتفق عليه عن محاجة موسى لآدم بقوله : أنت أخرجتنا من الجنة، فكانت لآدم الحجة والغلبة عليه، فذلك قضاء الله وترتيبه، ولولاه ماكانت هذه الحياة.

وهناك سؤال يثار حول قوله تعالى: ﴿**هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين، فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما**﴾. (الأعراف ١٨٩ و ١٩٠) والتفسير المناسب لنفى الشرك عن آدم وحواء، هو أنه لما تغشاها شعرت بالحمل أول الأمر خفيفا فاستمرت فى حياتها العادية لا تعانى تعبا، حتى إذا ثقل الحمل وعدا الله أن يشكراه إن ولد لهما نسل صالح، فرزقهما الله ولدين، صنفين ذكرا وأنثى، وباستمرار عملية الإنجاب وتكاثر الذرية وتعاقب الأجيال وتباعد العهد بالرسالات، نسى بعض الصنفين فضل ربهما فى الخلق والأنعام،



فجعلا لـه شركاء فيما آتـاهما وعبداهـا من دون الله أو لتقربهما إلى الله زلفى، كما فعل كفار مكة عند ظهـور الإسـلام وهـم المقصـودون بهذه الآيات كما قاله أكثر العلماء.

وبهذا التفسير الـذى يتفق مع أسلـوب اللغـة العـربية التى نـزل بها القرآن من عـود الضمائر أحيـانـا على اللفـظ وأخـرى على المعنى يستقيم معنى الآيـة ويتـلاءم مع ما يجب لـلأنبيـاء من عصمة.



وبعـد، فلا يجوز لأحـد أن يحمل آدم خطايـا البشر ليفـر هو من المسئـولية، فكل أمـرىء بما كسب رهين، ولا أن يحمل حـواء تبعة إغـراء آدم بالمخالفة فليس هناك دليل قاطع على ذلك، وأولى أن نأخذ من هذه القصـة عبرها، ومن العبر أن له أسرارا قـد يحبسهـا عن أقـرب الخلق إليـه، وأن العلم شرف رفع اللـه بـه قـدر من خلق من طين حتى سجد لـه من خلقوا من النـور، وأن الواجب أن يحذر المؤمن كل قـول معسول من شيـاطين الإنس والجن، وأن يحذر الغـرور فقد يـؤدى إلى الكفر، وأن المؤمن لا يجوز له أن ييأس من رحمة الله.



٨ نوح عليه السلام

إن نوحا عليه السلام يعد أول الرسل، كما فى حديث الشفاعة المتفق عليه، على الرغم من أنه مسبوق بآدم وشيث وإدريس ممن عرفت أسماؤهم من الأنبياء، وذلك لطول مكثه فى قومه، وكثرة عددهم وشدة مقاومتهم وانتقام الله منهم بما لم يعرف من قبل. قال تعالى فى بيان مدة دعوته ونهاية أمته: **﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾** (العنكبوت ١٤و١٥) وقال فى بيان اجتهاده فى الدعوة وشدة مقاومتها :**﴿قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا،**



وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا. ثم إنى دعوتهم جهارا. ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا﴾ (نوح ٥ ـ ٩) لاحقهم بالدعوة فى كل زمان وعلى كل حال حتى لا تكون لهم حجة ولم ييأس من هدايتهم على الرغم من شدة مقاومتهم، وقال تعالى فى بيان ما يدعو إليه وما يترتب عليه: **﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾** (نوح ١٠ ـ ١٣) طلب منهم ترك الأوثان وطلب المغفرة من الله وحده، ووعدهم بما يحبونه من عاجل الدنيا، بالعيش الرغد وكثرة المال والولد. وقال سبحانه فى أسلوب الدعوة: **﴿مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا. ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا. وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا. والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا. والله جعل لكم الأرض بساطا. لتسلكوا منها سبلا فجاجا﴾** (نوح ١٣ ـ ٢٠) . لقد اعتمد فى أسلوبه على جذب عقولهم وقلوبهم معا، وهو الأسلوب الأمثل الذى سار عليه الأنبياء فى الدعوة إلى الإيمان بالله سبحانه، إنه الأسلوب الذى يقوم



على إقناع العقل بصدق الداعى ، وعلى تحريك القلب بحب مايدعو إليه، وإقناع العقل يكون بإثارته للإعجاب بقدرة الله وبديع صنعه فى خلق الانسان أطوارا، وفى خلق السموات سبعا طباقا وتزيينها بالنور ليلا ونهارا، وفى بسط الأرض وتهيئتها ليسهل العيش عليها والتقلب فيها، وتحريك القلب يكون بخلق الإحساس بالنعم ولفت النظر إلى شكر المنعم، كالشمس فى ضوئها وحرارتها وما فيها من فائدة عظمى، والقمر والنجوم وما فيها من هداية السارى وتوفير الجو للراحة والسكون، والأرض وطواعيتها للعطاء والشر والخير الوفير، وغير ذلك من النعم التى لا تحصى.



ومن هذا الأسلوب نعلم أن العقائد لا تغرس ولا تدوم إلا باقتناع العقل وحب القلب، وما كان الإكراه أبدا وسيلة الدعوة فى أى عصر من العصور، قال تعالى على لسان نوح: **﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾** (هود٢٨).

وقد اتهم نوح عليه السلام كما اتهم سائر الأنبياء، فقد رموه بالنفعية المادية أو الأدبية، وبعدم أهليته للرسالة فهو بشر مثلهم وليس ملكا، كما تحدوه فطلبوا تحقيق رغباتهم المادية من الخزائن التى يملكها ربه، وطعنوا فيمن آمنوا



بــه بأنهم أراذل القـوم الـذين يسيرون وراء كل نـاعق دون نظـر وتأمل، ولئن أراد منهم الإيمان فعليه أن يطرد هـؤلاء، ليخلص لهم المجلس معه، فنفى نـوح كل هذه الاتهامـات ورفض كل هــذه العروض، وقال كما يحكى القـرآن الكريم : **﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مـالا إن أجرى إلا على الله وما أنـا بطارد الذين آمنوا، إنهم مـلاقو ربهم ولكنى أراكم قـومـا تجهلــون، ويـا قـوم من ينصرنى من اللـه إن طردتهم أفـلا تذكـرون. ولا أقـول لكـم عنـدى خـزائن اللـــه ولا أعلم الغيب ولا أقـــول إنى ملك، ولا أقـول للـــذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا. الله أعلم بما فى أنفسهم. إنى إذا لمن الظالمين﴾** (هود ٢٩ - ٣١) وأخيرا قالوا له بعد اليأس منه :**﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾** (هود٣٢).



وبعد هـذا الجهاد الطـويل والمقاومــة العنيفة وبعد تهديده بالـرجم إن لم يكف عن دعوته، دعا نـوح ربــه أن ينقذ الأجيـال القـادمـة من شرهم فقال: **﴿رب لا تـذر على الأرض من الكـافـرين ديارا. إنك إن تـذرهم يضلوا عبـادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا﴾** (نوح ٢٦و٢٧) وبعد أن أيأسه اللـه منهم بقـولــه: **﴿وأوحى إلى نـوح أنــه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾** (هود ٣٦) أمره أن يصنع سفينـــة ويحمل فيهـــا من كل زوجين



اثنين، وأن يحمل أهلـه إلا من سبق عليـه القـول منهم، ومن آمـن بـه وعـددهم ـــ مهما قيل فى تحديده ـــ قليل بالنسبـة إلى طول زمن الـدعوة، كما نهاه أن يتشفع فى الظـالمين الكافـرين فإنهم مغـرقون، وكـان ما كـان من أمـر الطوفـان كما فصله القرآن الكريم.

إن فى قصـــة نـــوح بعض النقـط تستحق التوضيح على ضـوء ما تقرر من عصمـة الأنبياء وبراءة سـاحتهم من كل ما يتنـافى مع رسالتهم، لقـد كان أحـد أولاده كـافرا، ومع ذلك دعـاه إلى الركوب معه فى السفينة ودعـا ربه أن ينجيه لأنه من أهلـه على الـرغم من قـول اللـه لـه: **﴿ولا تخاطبنى فى الـذين ظلمـوا إنهم مغـرقـون﴾** (هود ٣٧) فقال لـه ربه: **﴿يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنــى أعظك أن تكون من الجاهلين. قال رب إنى أعوذ بك أن أسـألك ما ليس لى به علم وإلا تغفـــر لى وتـــرحمنى أكـن من الخاسرين﴾** (هـود ٤٦، ٤٧) إن صـورة الخطأ ظـاهـرة فى هـذه الآيـات فكيف يتفق ذلك ومـا لـلأنبيـاء من عصمـة؟ والجواب كما يقـول أبـومنصور الماتـريدى : كـان ابن نـوح مؤمنـا ظاهـرا وكافرا بـاطنا، فطلب أبوه نجـاته بحسب ظـاهره، ورد اللـه عليه بحسب بـاطنه، ووعظـه بهذا الأسلوب لأن مقامه غير مقـام سائر الناس،





وكان عليه أن يتحرى حال ولده قبل أن يطلب له النجاة، وقول الله له: ﴿**إنى أعظك أن تكون من الجاهلين**﴾ لا يستلزم أنه منهم، كما قال لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿**فلا تكونن من الجاهلين**﴾ (الأنعام ٣٥) ولا يعيب نبينا أن يكون ولده كافرا، فكل أمرىء بما كسب رهين.

وهناك نقطة أخرى فى قوله سبحانه: ﴿**ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين**﴾ (التحريم ١٠) إن الخيانة هنا هى الكفر وليست خيانة العرض، فحاشا لله أن تكون امرأة نبى زانية كما قال ابن عباس رضى الله عنهما، ولا يضر نبيا أن تكون زوجته غير مؤمنة به، كما لا يضر مسلما أن يتزوج من كتابية لا تؤمن بدينه. وسمى كفر امرأة نوح خيانة لأن واجب الزوجية أن يكون بين الزوجين إخلاص ووضوح فى المعاشرة، وقد كانت هى تخفى كفرها عنه، وتلك خيانة شأنها شأن كل مخالفة. وبعد ، فينبغى أن يقتدى الدعاة بالذات بنوح فى طول صبره وتحمله، وأن نؤمن جميعا أن الله لايأخذ أحدا بجريرة أحد ليس له بها سبب، وأن عاقبة الإخلاص هى النصر، كما قال سبحان لنبيه عليه الصلاة والسلام عقب قصة نوح: ﴿**فاصبر إن العاقبة للمتقين**﴾ (هود ٤٩).





٩ إبراهيم عليه السلام

إن أبا الأنبياء ابـراهيم عليه السلام، الذى أكرمـه الله ـ وهـو شيخ ـ بذرية بـارك فيهـا بـالنبـوة والحكمـة والملك، اتخذه الله خليـلا حيث لا مكـان فى قلبه لحب أحـد سواه، حتى ولـده الذى أمره اللـه بـذبحه فـامتثل فيـه أمـر ربه، وقـال فيـه سبحانه: ﴿**إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين، شـاكـرا لأنعمه اجتبـاه وهـداه إلى صراط مستقيم، وآتينـاه فى الدنيـا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين**﴾ (النحل ١٢٠ ـ ١٢٢) وأمـر نبيه محمـد صلى الله عليـه وسلم ـ الـذى كان استجـابـة لدعـوة ابـراهيم وحفيـده من ولده اسماعيل ـ أن يتبع ملتـه، فى التـوحيـد الخالص والـدعوة إلى اللـه بـالحكمـة



والثبات على الحق حتى النصر.

نشأ أبو الأنبياء، فى أرض العراق بين قوم يقدسون الكواكب ويعبدون الأصنام، فأتاه الله رشده قبل أن يبعث رسولا يوجههم إلى عبادة الله وحده، فواجههم بهذا القول: ﴿**أفرأيتم ماكنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لى إلا رب العالمين، الذى خلقنى فهو يهدين، والذى هو يطعمنى ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين، والذى يميتنى ثم يحيين، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين**﴾ (الشعراء ٧٥ ـ ٨٢)



وبعد أن بذل جهداً كبيراً فى محاولة إقناعهم وجذب قلوبهم وتهديده بغضب الآلهة ، وقوله لهم : ﴿ **وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا** ﴾ (الأنعام ٨١) استقر رأيهم على التخلص منه وقالوا :﴿**حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين**﴾ (الأنبياء ٦٨) فتولى الله الرد عنه بقوله ﴿**قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم**﴾ (الأنبياء ٦٩).

هاجر ابراهيم ابراهيم من أرض الكفر وتوجه غربا وأقام بالشام وزار مصر وعاد منها بهاجر التى رزق منها بولده البكر اسماعيل الذبيح، الذى أسكنه وأمه حيث توجد الآن مكة المكرمة



قبلة المسلمين، ومن على زوجه سارة بإسحاق الذى رزق من ولده يعقوب بأنبياء بنى اسرائيل.

إن فى محاورات ابراهيم مع قومه وفى مسيرته فى الدعوة أمورا تحتاج إلى توضيح، منها ما جاء فى محاجته معهم فى الكواكب وقوله لها : ﴿**هذا ربى**﴾ (الأنعام ٧٦)، فكيف يصدر منه هذا القول الذى هو فى ظاهره شرك بالله؟. ومن أحسن الأجوبة أن قوله هذا أسلوب من أساليب إلزام المخالف وإبطال قوله، وهو التظاهر بتسليم ما يقول، ثم الانتهاء إلى إبطاله، فكأن ابراهيم قال لهم: سلمت جدلا أن الكواكب آلهة، ولكن العقل يقضى بعدم غياب الإله، وقد غابت فلا يصح أن تعبد من دون الله الذى لا يغيب، فإبراهيم بهذا الأسلوب لا يقر الشرك ولكن يبطله بالدليل.



ومن ذلك أيضا تأكيده تكسير أصنامهم، وعند سؤالهم له : ﴿ **أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون**﴾ (الأنبياء ٦٢ ـ ٦٣) أليس انكار ما فعله يعد كذبا؟

والجواب، ان إبراهيم لم يكذب بل أثبت أنه صادق ولكن بطريقة غير مباشرة، أو كان صدقه قضية تحمل معها دليلها، فلو كنت مثلا خطاطا ماهرا لا يجيد الكتابة غيرك، وسألك أمى غير



مجيد للكتابة: أأنت كتبت هذا؟ فقلت له باستهزاء بل أنت الذى كتبته، فالغرض هو إثبات الكتابة لك مع استهزائك بالسائل الذى ما كان ينبغى له أن يوجه هذا السؤال الظاهر البطلان.

ولذلك لما أجابهم ابراهيم بأن الذى كسر الأصنام هو كبيرهم، رجعوا إلى أنفسهم يتهمونها بالغباء لاعتقادهم ألوهية من لا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر ولا يرد عن نفسه كيدا، ولكن العناء جعلهم يتمادون فى مجادلته وتكذيبه، ولجأوا أخيرا إلى التهديد باستعمال القوة والعنف، وهو سلاح كل عاجز عن الاستمرار فى المحاجة المنطقية.



كذلك يقال : كيف يكذب ابراهيم بقوله عند نظره فى النجوم: ﴿**إنى سقيم**﴾ (الصافات ٨٩) وقد كان سليما بدليل أنه كسر أصنامهم أثناء غيابهم عنها فى أحد أعيادهم؟!

والجواب أنه كان بالفعل سقيما، وسقمه نفسى من تماديهم فى الضلال على الرغم من قوة الحجة، كما قال الله فى حق محمد صلى الله عليه وسليم : ﴿**فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا**﴾ (الكهف ٦) فقد أوهمهم ابراهيم أنه سقيم الجسم على ما كانوا يعتقدون من تأثير الكواكب فى الأجسام، وهو فى الوقت نفسه سقيم النفس، وذلك من المعاريض

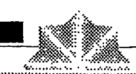


التى فيها مندوحة عن الكذب.

كذلك لا يقدح فى إيمان ابراهيم أنه طلب من الله أن يريه كيف يحيى الموتى، فإن الغرض من ذلك أن يطمئن قلبه، ولذلك أجابه الله إلى ما طلب، وهذا دليل على رضائه عن سؤاله.

وأيضا لا يقدح فى محاربة ابراهيم للشرك وعدم الرضاء عن أهله وعده لأبيه المشرك بالاستغفار له، فقد كان يرجو هدايته، ولكن عندما علم إصراره على شركه ترك الاستغفار له، قال تعالى: ﴿**وماكان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه**﴾ ومما يدل على رضاء الله عن موقفه ختام هذه الآية: ﴿**إن إبراهيم لأواه حليم**﴾ (التوبة ١١٤) .

هذا ، وقد صح فى الحديث أن ابراهيم يمتنع عن الشفاعة يوم القيامة بحجة أنه كذب ثلاث كذبات، فى قوله : ﴿**بل فعله كبيرهم**﴾ وقوله: ﴿**إنى سقيم**﴾ وقوله عن زوجه سارة أنها أخته، وقد عرفت الإجابة عن الأولين، أما الثالثة فهو صادق لأنها أخته فى الإسلام كما جاء فى صحيح الروايات، وذلك ليخلصها من ظلم فرعون، وإحجامه عن الشفاعة على الرغم من سلامة مواقفه، استحياء من الله أن تكون فى حياته صورة المعصية وإن لم تكن محل المؤاخذة..



وحسنات الأبرار سيئات المقربين كما هو معروف.

وبهذا التوضيح تبرأت ساحة ابراهيم عليه السلام من كل ما يشوب عصمته ويتنافى مع خلته وحنيفيته، وعلينا أن نتخذ من حياته أسوة حسنة فى توحيده الخالص وطريقته العقلية فى الدعوة، وفى ثباته على الحق والاستهانة بكل التحديات، وعلينا أن نزيد إيماناً بأن النصر فى النهاية للحق إذا أخلص له أهله، وأن نتبرأ من الشرك وأهله حتى يعودوا إلى الحق، وأن تكون صلتنا بالله كما قال ابراهيم فى دعائه: ﴿**ربنا عليك توكلنا و إليك أنبنا و إليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم**﴾ (الممتحنة ٤و٥).





١٠ لوط عليه السلام

إن نبى الله لوطا كان يعيش مع عمه ابراهيم عليهما السلام فى أرض العراق، وكان من أول من آمن بدعوته كما يقول الله سبحانه: ﴿فآمن له لوط﴾ (العنكبوت ٢٦) وبعد نجاة ابراهيم من النار هاجر من العراق ومعه لوط، كما قال سبحانه: ﴿ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين﴾ (الأنبياء ٧١) وعند وصولهما إلى أرض الشام رأيا من المصلحة أن يتفرقا، فتوجه لوط إلى مجموعة من القرى أطلق عليها القرآن : اسم المؤتفكة والمؤتفكات ، ومنها قرية سدوم، كانت تشيع فى هذه القرية الفاحشة المنكرة المعروفة، فبدأ لوط دعوته إلى عبادة الله



وحده وخشيته، كما هو دأب جميع المرسلين، قال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ (النحل ٣٦) وعرفهم بنفسه بوصفين ينتزع منهم ثقتهم فيه، هما : الإخلاص فى تقديم النصح لهم وعدم الطمع المادى من وراء الدعوة: ﴿**إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين**﴾ (الشعراء ١٦٢ ــ ١٦٤) ثم بدأ علاج المشكلة بالتوعية حسب هذا المنهج .



بين أنها منافية للطبيعة السوية وشذوذ عنها: ﴿**أتأتون الذكران من العالمين، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون**﴾ (الشعراء ١٦٥، ١٦٦) ويقول سبحانه على لسان لوط : تعجبا من انحرافهم وفحشهم : ﴿**أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون**﴾ (النمل ٥٤) ﴿**وتأتون فى ناديكم المنكر**﴾ (العنكبوت٢٩) ثم بين أنها أول سابقة فى التاريخ، وعليهم وزر كل من عمل بها إلى يوم القيامة كالقتل بين ولدى آدم :﴿**أئنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين**﴾ (الأعراف ٢٨) ثم بين خطرها فى أنها تجر إلى منكرات أخرى كالخطف وقطع الطريق توصلا



إليها أو استكمالا لها: ﴿**أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل**﴾ (العنكبوت ٢٩) .

ثم خوفهم من عاقبة التمادى فى العصيان بقوله تعالى : ﴿**ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر**﴾ (القمر ٣٦) وانتهى أمر المعارضة إلى تهديده بالطرد من القرية: ﴿**لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين**﴾ (الشعراء ١٦٧) ﴿**فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون**﴾ (النمل ٥٦).



وما كان من لوط بعد أن بلَّغ وأنذر إلا استنكار فاحشتهم والتبرؤ من عملهم، والتوجه إلى الله أن ينجيه من هذا الوسط الموبوء ومن سوء عاقبته : ﴿**قال إنى لعملكم من القالين، رب نجنى وأهلى مما يعملون**﴾ (الشعراء ١٦٨، ١٦٩) وطلب منه أن ينصره عليهم : ﴿**قال رب انصرنى على القوم المفسدين**﴾ (العنكبوت ٣٠).

وهنا بدأت إجراءات الانتقام، فمر الملائكة بإبراهيم فى طريقهم إلى لوط ، بعد طمأنته على سلامته، وعندما وصلوا القرية سىء بهم لوط خوف إساءة الناس لهم وعدم تمكنه من حمايتهم، فطمأنوه على ذلك وأخبروه أنهم جاءوا



لتنفيذ العقاب بالقوم الطاغين.

ولما سمع القوم بمجيئهم هرعوا إليهم يريدون بهم سوءا، تماديا فى شذوذهم، ومن قبل كانوا يعملون السيئات فصاح فيهم لوط: **﴿فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد﴾** (هود ٧٨) فأجابوه: **﴿أو لم ننهك عن العالمين﴾** (الحجر ٧٠) أى عن الدفاع عن غيرك أو استضافة أحد. ثم عرض عليهم بناته للزواج فأبوا وقالوا: **﴿مالنا فى بناتك من حق و إنك لتعلم ما نريد﴾** (هود ٧٩) .



ولما رأى تصميمهم على السوء قال: **﴿لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد﴾** (هود ٨٠) أى لوكانت معى قوة لمنعتكم، أو لو كان هناك ركن قوى يساعدنى لكفانى الله شركم، فهدأ الملائكة من روعه وأخبروه بالمخطط الذى وضعه الله لعقابهم وموعد تنفيذه، وأمروه بالخروج ليلا من القرية ومعه أهله إلا زوجه العجوز التى تواطأت مع القوم اتقاء لشرهم أو رضاء عن فعلتهم، وليكن لوط آخر من يخرج ليطمئن على خروج الموعودين بالنجاة، ونهوه عن التأثر عند رؤية العقاب النازل على القرية فلا يلتفت وراءه.

وفى الصباح وهم مشرقون جعل الله قراهم

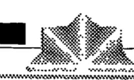


عاليها سافلها، وتمم الخسف فأمطر عليها حجارة شديدة الوقع سديدة الإصابة، تلك الحجارة التى أعدها الله لكل من يخرج على أوامر الله فى كل زمان ومكان، اقرأ قوله تعالى: **﴿قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك أنه مصيبها ما أصابهم، إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب، فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد﴾** (هود ٨١ ـ ٨٣)



إن فى حياة لوط عليه السلام نقطا تحتاج إلى توضيح، لقد جاء فى سورة التحريم قوله سبحانه : **﴿ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما﴾** (التحريم ١٠) فما هى هذه الخيانة وكيف تحصل فى بيت النبوة؟

أولا ليست الخيانة هى الزنا فحاشا لله أن يكون الزنى فى بيت نبى كما ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما ، والمستبعد أن تكون «عجوز» كما وصفها الله تخون زوجها بالفاحشة، وإنما



كانت الخيانة خيانة كفر بدعوته، وعدم معاونتها له على جهاد الظالمين، وكون زوجة نبى كافرة لا يقدح فى عصمته هو ولا يمس شرفه بسوء، فكل امرىء بما كسب رهين.

كما أن عرض بناته على القوم كيف يحدث، أليس فيه دعوة للزنى؟ والجواب كما قيل : إنه عرض بنات قومه المؤمنات أو النساء الموجودات فى القرية وهن بناته من الناحية الأدبية لا النسبية، ولو أنه عرض بناته من صلبه فذلك لرؤساء القوم المهاجمين له، على أن يكون ذلك زواجا شرعيا بينهم وبينهن، فمن عنده من البنات لا يكفين لزواج أكثر منهن، أو كان عرضا لا تقصد حقيقته ليصرفهم عن الملائكة.



وقول لوط: **﴿لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد﴾** (هود ٨٠) لا يقدح فى إيمانه بربه واعتماده على مولاه سبحانه أقوى الأقوياء، وأشد ركن يعتمد عليه، ذلك أن الإيمان بالله لا يمنع الأخذ بالأسباب، كما أمر الله نبيه بالإعداد للجهاد بما استطاع مع قوله: **﴿وما النصر إلا من عند الله﴾** وحكمة ذلك فى قوله سبحانه: **﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾** (محمد ٤)

هذا ، وقد جاء فى التوراة تحايل بنات لوط



عليه بطريقة يأباها كل ذوق وشرف شوقا إلى ذرية الأولاد، وهذا افتراء غنى عن الرد عليه، فالحياء وأصول الأخلاق شرع فى كل دين.

وبعد ، فإن لنا فى حياة لوط عليه السلام عبرا، ومنها الهجرة من مكان السوء إلى مكان يأمن فيه المؤمن على نفسه وعقيدته، ومنها اتباع المنهج الصحيح فى الدعوة بربط المدعوين مع الداعى بخيط الثقة، والإخلاص فى الدعوة، وعدم اعتزال الناس إلا بعد القيام بواجب التبليغ، ونعلم من هذه القصة جواز وجود رسولين فى وقت واحد، كل منهما لقوم مخصوصين، وذلك فى الرسالات السابقة، أما رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فهى عامة وخالدة، ونعلم أن الله ينصر الحق ولو قل أعوانه، وأن عقابه بالمرصاد لكل ظالم.





١١ يعقوب عليه السلام

ان الله سبحانه قال فى بشارة الملائكة لامرأة ابراهيم عليه السلام: ﴿فبشرناها بإسحق ومن وراء اسحق يعقوب﴾ (هود ٧١) فيعقوب عليه السلام ليس إبنا لابراهيم ولا أخا لإسحق، ولكنه ابن اسحق بن ابراهيم عليهم جميعا صلوات الله وسلامه، ويقال: ان تسمية يعقوب من الله وإن ابراهيم عاش حتى رآه، ويسمى أيضا اسرائيل أى عبدالله، كما قال سبحانه: ﴿ **كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة**﴾ (آل عمران٩٣)، وذلك أنه أصيب بمرض فنذر إن شفاه الله منه أن يحرم على نفسه لحوم الابل وألبانها، وذلك قبل أن تنزل التوراة



على موسى الذى فصل الله له فيها ما يحل وما يحرم على بنى اسرائيل.

تقول الروايات ان يعقوب تزوج امرأة أنجبت له يوسف وبنيامين، وضم إليها أختها التى أنجب منها ستة أولاد، وكان الجمع بين الأختين جائزا فى شريعتهم، ثم رزقه الله من جارتين أربعة أولاد، فتكون عدة أولاده اثنى عشر ولدا..

حكى القرآن الكريم أن يعقوب كان يحب يوسف وبنيامين أكثر من حب بقية أولاده، وعاب عليه أولاده منه هذا الموقف: **﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين﴾** (يوسف٨).



أى فى سوء تدبير، وليس المراد ضلال العصيان لله فذلك منهم كفر كما يقول العلماء، وبدافع من الغيرة دبروا إبعاد يوسف عن أبيه، واستقر رأيهم بدل أن يقتلوه على أن يلقوه فى الجب، فكان ما كان وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله، كما هو مفصل فى القرآن، فحزن يعقوب وسلم أمره لله متهما إياهم بالتآمر عليه لوجود القرائن على كذب ادعائهم، وفى سفرهم إلى مصر ليمتاروا طلب منهم يوسف وهو الأمين على الخزائن أن يحضروا أخاهم الغائب، فخاف أبوهم أن يسلمهم إياه حتى لا يكون مصيره مصير يوسف، ولما احتجزه يوسف معه بما



علمه الله من حيلة، اشتد حزن يعقوب على يوسف وأخيه وتأثرت عيناه ولم تعد لهما قوتهما الأولى إلا بعد أن جاء قميص يوسف وألقوه على وجهه، ثم انتهى الأمر إلى دخول يعقوب وأولاده إلى مصر، وعاشوا فيها نحو قرنين من الزمان، حتى خرجوا منها على يد موسى عليه السلام.

إن فى قصة يعقوب وأولاده نقطا تحتاج إلى توضيح بما يحقق للأنبياء عصمتهم ويبرىء ساحتهم من معصية الله..



فيقال أولا: كيف يدبر أولاد يعقوب قتل أخيهم ويحزنون أباهم بما فعلوا، أليس فى هذا نقص يجب أن يتنزهوا عنه؟ ونجيب بأن هؤلاء عند اقترافهم ما فعلوا كانوا بشرا عاديين، ولم يثبت أنهم أنبياء حتى تثبت لهم العصمة، ولم ينبأ من أولاد يعقوب الاثنى عشر إلا يوسف عليه السلام، وأما اخوته وهم أسباط ابراهيم فليس هناك دليل ثابت على نبوتهم على الأقل عند قيامهم بهذه المخالفة.

ويقال ثانيا : كيف يأسف يعقوب على يوسف وأخيه، ويشتد به الأسف حتى تبيض عيناه.. ألا يتنافى حزنه مع واجب الرضا بقضاء الله، وبخاصة أنه شكا بثه وحزنه، ثم ألا يتنافى ابيضاض عينيه مع ما يجب للأنبياء من عصمة



عن كل ما ينفر الناس منهم وما يتنافى مع دعوتهم؟

ونجيب على ذلك بأن حزن يعقوب لم يكن فيه جزع من قضاء الله أبدا، فهو القائل عندما تلقى النبأ عن يوسف: ﴿**فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون**﴾ (يوسف١٨)، وعند تلقى النبأ عن أخيه قال : ﴿ **فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا** ﴾ (يوسف ٨٣)

فالتزم الصبر واستعان بالله ورجاه أن يرد إليه ولديه، والحزن ظاهرة طبيعية، والبكاء على المصيبة عاطفة لا يمكن أن تقاوم عند عامة الناس، فقد يكون فى الكبت والحبس ضرر، ومادام القلب سليما والاعتقاد فى الله وقضائه راسخا فى النفس فلا يضر الظاهر من بكاء وأسف، وقد بكى النبى صلى الله عليه وسلم على موت ولده. ولما سئل قال: إن البكاء رحمة، وصرح فى موت ابراهيم ابنه فقال: ان العين لتدمع وإن القلب ليخشع، ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا على فراقك ياإبراهيم لمحزونون. رواه البخارى.



هذا، وابيضاض عينى يعقوب لا يتنافى مع رسالته، فإن ذلك لم يفض إلى العمى، بل إلى ضعف البصر، وكان لفترة محدودة، ولم يثبت أنه كان منفرا للناس منه، ومثل هذه الأعراض



جائزة على الأنبياء كبشر. وارتداء بصر يعقوب عند إلقاء قميص يوسف عليه لا يستلزم أنه كان قد عمي، فيجوز أن يكون ارتداد البصر إليه هو ارتداد قوته كما كان قبل الحزن.

وقول يعقوب: ﴿**إنما أشكو بثي وحزني إلى الله**﴾ (يوسف٨٦) لا يقدح في إيمانه، فالممنوع على كل مسلم أن يشكو الله لغير الله، أما الشكوى إلى الله فهي نوع من التضرع والدعاء، كما جاء عن سيدنا أيوب عليه السلام : ﴿**وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين**﴾ (الأنبياء٨٣).



وبعد، فإن في قصة يعقوب وأولاده عبرا، منها بيان ما يحدث بين الأخوة من غيرة، وهنا لابد من التنبيه إلى الحساسية الموجودة بينهم، وعليهم. وهم ينفسون عن هذه العاطفة، ألا يلجأوا إلى أمور يحرمها الدين، وبخاصة ما يكون فيه عقوق وإيلام للوالدين، كما ننصح الضرائر أن يراعين هذه الحساسية، وألا يكن عونا للأولاد على قطيعة الرحم فيما بينهم، فمراعاة مستقبلهم واجب أدبي وديني، يلزمنا أن نهيىء لهم الجو ليعيشوا أخوة متحابين أو على الأقل متعاونين غير متقاطعين.

كما أن في قصة يعقوب ما يحثنا على الصبر عند الشدائد، وعلى الأمل في رحمة الله، فإنه لا



ييأس من روح الله إلا القـوم الكافـرون، وأن من الامتحانـات على شدتها مـا تكون عـاقبة طيبـة، فيوسف صار أمينـا على خزائن الأرض، ويعقوب وأولاده هـاجر من الشـام إلى مصر، وكـانت من أجلهم نبوة موسى عليه السلام: ﴿**فأتيا فرعون فقـولا إنا رسـول رب العالمين، أن أرسل معنـا بنى إسرائيل**﴾. (الشعراء ١٦,١٧).

وفى قـول يعقـوب لأولاده : ﴿ **يـا بنى لا تدخلـوا من باب واحـد وادخلوا مـن أبواب متفـرقـة ومـا أغنـى عنكم من الله من شىء**﴾ (يـوسف٦٧) مـا يـدل على حب الـوالـد لأولاده وحـرصـه على منع الأذى عنهم، وعلى أن العين حق كما ثبت فى الصحيحين، ومع ذلك فـلا شىء فى الوجود يؤثر إلا بإرادة الله سبحانه.





١٢ يوسف عليه السلام

في حديث متفق عليه أن النبي الله سئل عن أكرم الناس؟ فقال في إحدى إجاباته: يوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله. فيوسف هو ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام، ولا يكاد أحد يجهل اسمه وقصته التي سجلتها سورة كاملة في القرآن الكريم، مبتدئة من حيث رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين له، ومتنقلة به من إلقائه في الجب ونشأته في بيت عزيز المصري في القرن السادس عشر قبل الميلاد ودخوله السجن ثم خروجه وتولى منصب الأمين على خزائن الدولة، إلى لقائه مع أخوته الذين جاءوا من الشام يمتارون، ومجيء الأسرة كلها وجمع



شملها بعد غياب يوسف وحزن أبيه عليه سنين عددا، وتحقق رؤياه والاقامة فى مصر نحو قرنين من الزمان.

لقد عنى الكثيرون بتحليل قصة يوسف دينيا وخلقيا واجتماعيا وأدبيا وسياسيا، على ضوء ما جاء فى ختام السورة: ﴿**لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾ (يوسف ١١١)



وانطلاقا من حديثنا عن عصمة الأنبياء نختار من القصة نقطتين هامتين تحتاج كل منهما إلى ايضاح، أولاهما قوله تعالى: ﴿**وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله، إنه ربى أحسن مثواى، انه لا يفلح الظالمون. ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين**﴾ (يوسف ٢٣و٢٤).

لهذا المشهد من القصة بداية ونهاية، فبداية إغراء وعرض بالكلام، ونهايته تشابك بالأيدى وعراك، عرضت امراة العزيز نفسها على يوسف بعد تهيئة الجو الكامل له، فكان جوابه الرفض التام، مستعيذا بالله الذى يؤمن به أن يعصيه، ومذكرا لها أن الواجب الانسانى يأبى أن يقابل



المعـــروف بالجحود، فربه أى سيده الذى رباه وأتمنـه على عرضـه وأسرار بيتـه لا يكون جـزاء معروفـه طعنة فى شرفه وخيـانة فى أمانتـه، فذلك ظلم والظـالمون لا يفلحون. وهنـا أحست امـرأة العـزيز بصـدمة عنيفـة ضد رغبتهـا الجامحة، وبطعنة قويـة جرحت فيها كبرياءهـا كسيدة له، فقـررت أن تنال منـه بالقـوة مالم تستطع نيلـه باللين والاغراء، فهمـت به جذبا إليهـا أو انتقاما، وهم بها تخلصا ودفاعا، وكـاد يقضى عليها لولا أن رأى بـرهان ربـه، ذلك البرهان الـذى ليس فى يقينـه دليل صحيح أو رأى تـرتاح إليـه النفس، ولعلـه خـوفه مـن الله أن يعاقبـه على فتكـه بها، فـرأى الفـرار من وجهها متجهـا إلى البـاب وهى تـلاحقه ممسكـة بقميصـه من خلفه، ولم ينقـذ الموقف إلا وجـود زوجهـا لدى البـاب، فبـادرت بـالاتهام بل بإصـدار الحكم على يـوسف: **﴿ما جــزاء من أراد بأهلك ســوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾** (يوسف ٢٥).



وبدفـاعه عن نفســه وشهادة رجل مــن أهلها بقرينـة قطع قميص يوسف مــن الخلف، أصدر الزوج حكما ببراءة يوسف وإدانتها : **﴿فلما رأى قميصــه قدّ من دبـر قـال: إنه من كيـدكن إن كيــدكن عظيم يــوسـف أعــرض عن هــذا واستغفـرى لـذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾** (يوسف٢٨و٢٩) .



إنه موقف بطولى من يوسف حيث صمد أمام كل المغريات، فهو أعزب غـريب فى عنفوان شبابه وكمال حسنه، أمام سيـدة فى القمة جمالا وثراء وسلطات، تقـدمت هى بالـرغبة وأمنت لـه كل ما يخشاه، فقـال : معاذ الله، وتـذكر واجـب الشكر على المعروف، فهل يعقل بعـد أن رفض الفاحشة فى هذا الجو المهيأ، أن تحدث منه مراودة وهم بما أباه؟ انهما موقفان فى بدء المشهد ونهايته، كان فى كل منهما البطل المبرأ الساحـة من الفحشاء ومن السوء معا.



لقد فشا الخبر فى المدينة، وفى جمع من النسوة عند امـرأة العزيـز أطل يوسف عليهن فبهـرهن جمالـه وكدن يقطعن أيـديهن ، ومع أن صاحبـة الدعوة، أقرت ببراءتـه لكنها أعلنت لهن استمرار رغبتها فيما تريـد، وكأنها تتحدث بلسان كل من شـاهدنـه وتهدده بـالسجن إن لم يستجب لهن فآثر أن يسجن، فذلك أحب إليه مما يدعونه إليه. كل هذا حدث ولم يكن بعد نبيا ورسوله..

ان الـذين لهم تعلق بهذه الحادثـة سبعـة، وكلهم شهـد ببراءة يـوسف، أولهم: رب العـزة سبحانه وقد قال: **﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه مـن عبادنا المخلصين﴾** ثانيهم إبليس الـذى قـرر مـع القسم: **﴿فبعـزتك لأغـوينهم أجمعـين إلا عبـادك منهم**



المخلصين﴾ (ص٨٢ و ٨٣) ، ومعنى هذا ألا يكون لإبليس عليه سلطان، وثالثهم يوسف نفسه القائل: **﴿ هى راودتنى عن نفسى﴾** والقائل: **﴿معاذ الله﴾** ورابعهم المرأة نفسها وهى القائلة: **﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾** (يوسف٣٢)..

﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه و إنه لمن الصادقين ﴾ (يوسف٥١) خامسهم زوجها وقد قال لها : **﴿إنك كنت من الخاطئين﴾** وسادسهم ما شهد به الشاهد من أهلها، وسابعهم نسوة المدينة: **﴿قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه، قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾** (يوسف٥١)



ثانية النقطتين فى حياة يوسف أمره بجعل السقاية فى رحل أخيه، والتحايل عليه حتى أدين بالسرقة وحتى حبسه عنده،أليس فى هذا ظلم للأبرياء لا يليق بالأنبياء؟ وقد تكفل الله بالاجابة فقال : **﴿كذلك كدنا ليوسف﴾** فهذا تدبير من الله سبحانه، وإذا وصل الأمر إلى كونه وحيا من الله فليس هناك اعتراض، فهو سبحانه الذى يملك التحليل والتحريم دون سواه.

هذا، وقد يقال إن يوسف سرق بدليل قوله تعالى : **﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل، فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم﴾** (يوسف٧٧)..



والجواب واضح على هذه الشبهة، فالسرقة تهمة منهم ألصقوها به، والمتتبع لأقوال التوراة يراها تهما لا دليل عليها ، وفى كثير منها لا يد ليوسف فيها، وكل ذلك كان قبل أن يرسل، فرسالته بدأت بدعوة رفاقه فى السجن وهو فى مصر بعيدا عن أسرته فى الشام، حيث جرى ما اتهموه به وهو منه برىء..

وبعد، فإن فى قصة يوسف الذى تحققت رؤياه بعد سنين بلغت - فى بعض الأقوال - ثمانى بيانا لخطر الفتنة بين الجنسين، وإيمانا بحكمة التشريع فى فرض الوقايات والاحتياطات لتنظيم العلاقة بينهما، وفى القصة تكريم للبطولة الحقة فى المواقف الحرجة، وعناية الله بالمخلصين له والحافظين للحدود والأمانات، وفيها بيان لشرف العلم وأثره، فتأويل يوسف للرؤيا بلغ هذا المنصب المرموق، وفيها تأكيد لنهاية المؤمنين الصادقين: ﴿**إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾ (يوسف ٩٠).. وفيها إشادة بالعفو عند القدرة: ﴿**لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**﴾ (يوسف ٩٢).





١٣ موسى وهارون عليهما السلام

موسى بن عمران عليه السلام أول نبى من أنبياء بنى إسرائيل، نزل عليه كتاب هو التوراة ، كان شريعة لمن جاء بعده من الأنبياء ، ولد بمصر فى ظروف قاسية ، حيث خاف فرعون أن يُكَوِّنَ بنو إسرائيل الذين دخلوا مصر حوالى سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد ، حزبا مناوئا له ، بعد أن طُرِدَ ملوك الرعاة الذين كانوا بها منذ أربعة قرون ، فأمر بذبح كل مولود ذكر منهم ليحول دون تكاثرهم ، وعند ولادة موسى أوحى الله إلى أمه : **﴿ أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾** (القصص - ٧) وكما قص القرآن الكريم التقط آل فرعون الصندوق

الذى به موسى ، ووضع الله فى قلب امرأة فرعون الـرحمة فقـالت حين رأتـه : ﴿ **قـرة عين لى ولك لا تقتلوه عسـى أن ينفعنا أو نتخـذه ولدا** ﴾ (القصص ــ ٩) وشـاء الله بعـد امتنـاعـه عن المراضع أن يرده إلى أمه كمرضع ، كى تقر عينها ولا تحزن ، ونشأ فى رعـايـة بيت الملك حتى شب وبلغ أشده .

وفى أحـد الأيـام ، وهـو متـوجه مـن المحـلة التى كـان أهله يقطنـون بها ، إلى المدينـة التى لا يعلم تحديدها بالضبط ، دخلها دون أن يفطن له أحد على مـا يبدو مـن شدة الـرقابـة على هؤلاء ، فتدخل لفض منـازعة استغاث بـه فيها رجل من شيعته على الخصم المعـادى له ، فوكـزه موسى فقضى عليه ، ثم نـدم ، وأصبح فى المدينة خـائفا يترقب ، وكادت تحصل منـه حادثـة مماثلـة ففر من مصر ووصل مـدين ، فى إعياء نفسى وبـدنى وطلب من ربه أن يهيىء لـه الخير فكان اتصـاله بشيخ كبير فى مـدين يقول الجمهور إنـه شعيب عليـه السلام ، وعقـدت بينهما مصاهـرة انتهت بـاختيـار الله لموسى رسـولا إلى فـرعـون مصر لـــدعـــوتـــه إلى الله ولإخـــراج بنى إســـرائيل وتخليصهم من الاضطهـاد ، فقـام بما كلف بـه بعد أن عززه الله بأخيـه هارون ، وانتهى الأمر إلى خـروج بنى إسرائيل من مصر ، وغـرق فرعـون





وجنـــوده ، وبينما هم فى أرض التيـــه ضل بنـــو إسرائيل فعبدوا العجل فى غياب مـوسى لميقات ربه الذى أنــزل فيه عليه التــوراة ، وفى إحدى مـواعظه ظن أنـــه ليس هناك مــن هو أعلم منـــه على الأرض فأمره الله بلقاء عبد مــن عباده هو الخضر كما جاء فى الأحاديـث الصحيحة ، وكانـت له معـه صحبة جرت فيهـا أحداث آمن فيهـا موسى بأن مـا علمه ليس هو كل شىء ، ففوق كل ذى علم عليم .

والقـارئ للقـرآن والمتتبع لقصـــة مـوسى يتســاءل : كيف يقتل مـــوسى رجـلا لا يستحق القتل عند مـا كان يتشــاجر مع رجل من قـومه ، أليس القتل منافيا لما يجب لـلأنبياء من عصمة ؟ أليس للشيطان سلطـان عليه أعانـه على ارتكاب هذه الجريمة .. والأنبيـاء من عباد الله المخلصين الـذين ليس للشيطـان عليهم سلطـان كما أقـر بذلك وسجله القرآن الكريم ؟



والجواب : أن هذا العمل أولا كـان من موسى قبل أن يكون نبيـا ، فنبوتـه جاءت بعد خـروجه من مصر إلى مـدين ، وثانيـا لم يكن هناك تعمـد للقتل أبـــدا ، والخطأ عند الله مغفـــور ، وكـون مـــوسى استعظم مـا حـــدث منـه ونسبـــه إلى الشيطان وطلب من الله أن يغفر لــه وقد عده ظلما منه ، لا يقـدح فى العصمة ، فالصغـائر أو المعفو عنه ، يعتبرهـا من صلتهم وثيقة بـالله من عظائم



الأمور ، على ماذ كرنا كثيرا من أن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ويتساءل الناس أيضا عن قول موسى : ﴿**وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى**﴾ (القصص ـــ ٣٤) كيف يتفق هذا مع ما يجب للأنبياء من معرفة لسان أقوامهم كما يقول سبحانه : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** ﴾ (إبراهيم ـ ٤) .

والجواب أن موسى كان يعرف اللسان ، ولكن هارون كان أفصح ، وصيغة التفضيل وهى أفصح ، تدل على وجود الفصاحة عند موسى ولكنها فى هارون أقوى ، وليس هناك دليل يعتمد عليه فى كون لسان موسى أصابته جمرة أو غير ذلك .



ثم يقال أيضا : كيف يقصر هارون فى سياسة اليهود عند غياب موسى لتلقى التوراة ، حتى إنهم كفروا بالله وعبدوا العجل ، وهذا يقدح فى مقام هارون كنبى ، والجواب : أن هارون قام بواجبه من الإنكار عليهم ، ولكنهم كانوا أقوى منه ، ولم يستعمل معهم العنف حتى لا تكون بينهم فتنة الفرقة والاختلاف وهم بعد غير مستقرين ، ولم يتركهم هارون ليلحق بموسى فيخبره بما حدث حتى لا يكون غيابه فرصة



لزيادة تفرقهم واختلافهم ، اقرأ قوله تعالى : **﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به و إن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمرى ﴾** (طه ـ ٩٠) وقوله : **﴿ يابْنَ أُمَّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى﴾** (طه ـ ٩٤) وقوله : **﴿ قال ابْنَ أُمَّ ، إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾** (الأعراف ـ ١٥٠) من هذا نرى أن هارون قام بواجبه فى الدعوة والاستنكار ، لكنه وجد المعارضة عنيفة كادت تؤدى إلى قتله .. ولذلك عذره موسى أخيرا وقال : **﴿ رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴾** (الأعراف ـ ١٥١) .



ثم يقول أيضا ، كيف تقع هذه الأخطاء من الخضر فى خرق السفينة وتعريض ركابها للغرق، وفى قتل الغلام الزكى بدون ذنب ، وفى عمل خير مع قوم لا يستحقون حيث أقام جدارا بدون أجر فى قرية لم تؤد لهما واجب الضيافة .

والجواب عن ذلك، أولا: أن الخضر لم تتفق آراء العلماء على أنه نبى أو رسول ، فمازاد القرآن على وصفه بأنه عبد من عباد الله أتاه الله رحمة وعلَّمه من لَدُنْهُ علما ، وعلى هذا فليس فى



قصتــه مــا يتعارض مع عصمة الأنبياء ، وثانيا : أن الله سبحــانه هــو ا لذى أمــره بذلك ، وهنــا لا يجوز التساؤل أبدا ، فالله سبحانه مالك التحريم والتحليل ، وهذا ما ذكـره الخضر لموسى فى نهاية اللقاء : ﴿ **ومـا فعلته عن أمـرى** ﴾ (الكهف ـ ٨٢) .. ولا يعقل أبـــدا أن يجعل الله رســـولا من رسله ، وهــو موسى ، تلميـذاً لرجل يعصى الله ، فالخضر مطيع لأمر ربه عقلا ونقلا .

وبعـد ، ففى حيـاة مـوسى عبر كثيرة ، وقـد تكرر الحدث عنه مـرات كثيرة فى القرآن الكريم ، وحسبنا أن نـرى فى قصته ، مـا يجب من الصبر والتحمل فى الـدعوة ، وأن عـاقبة التـوكل على الله هى النصر والخير بعد الأخـذ فى الأسباب ، وعَدَم الأنفـة من مـزاولـة أيــة مهنـة ، ليكسب منهـا الإنسان عيشا كـريما يُعفه عن ذل السؤال ، وأن الحق لا يعدم أنصــارا حتى من الأعداء : ﴿ **وقال رجل مــؤمن من آل فــرعــون يكتم إيمانـــه أتقتلـون رجلا أن يقـول ربى الله** ﴾ (غافـر ـ ٢٨) وأن الغلبـــة للحق مهما كـان للبــاطن من أعوان ، ففى قمـة الطغيان والجبروت لفـرعون ، تخلى عنه السحـرة وآمنوا برب مـوسى وهارون وأغرقه الله وجعله لمن خلفه آية ، وأن الإيمان بالله أقوى أسلحـة النصر : ﴿ **فلما تراءى الجمعــان قال أصحاب موسى إنـا لمدركون ، قال كلا إن معى ربى سيهدين** ﴾ (الشعراء ـ ٦١ ـ ٦٢) .





١٤ داود عليه السلام

دخل بنو إسرائيل بلاد فلسطين بقيادة يوشع الذى تولى أمرهم حتى توفى، فأقاموا بعده نحو ثلاثة قرون ونصف القرن يتولى شئونهم قضاة، دون أن يكون لهم ملك يرأسهم، وكانت مهمة الأنبياء فى تلك الفترة ارشاد القضاة، وقد يقومون هم أنفسهم بالفصل فى المنازعات، وكانت الدول المجاورة لهم تغير عليهم كثيرا، وفى إحدى المعارك الحربية ضاع منهم تابوت العهد الذى كانوا يحملونه معهم ليستنصروا به، فطلبوا من أحد أنبيائهم أن يعين عليهم ملكا يقودهم فى الحرب، كما قال سبحانه : ﴿**ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل**



الله﴾ (البقرة ٢٤٦) وكان ذلك بعد حوالى ألف سنة من عهد موسى، وتدل الآيات على أن طالوت الذى أتاه الله بسطة فى العلم والجسم تولى قيادة إحدى المعارك بعد أن اعترضوا عليه كما حكى القرآن الكريم، فانتصروا فى النهاية، وكان لداود أحد أفراد الجيش فضل فى هذا الانتصار، لأنه قتل قائد العدو، قال تعالى: **﴿فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت، وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾** (البقرة ٢٥١) ظهر داود بعد هذه المعركة فتولى الملك وضم الله إليه الله النبوة والحكمة والعلم، وميزه بميزات منها ماجاء فى قوله سبحانه: **﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق، والطير محشورة كل له أواب، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾** (ص ١٧ - ٢٠) فكان صوته جميلا وهو يرتل الزبور الذى أنزله الله عليه حتى اجتذب إليه الطيور، بل حرك إليه السواكن من الجبال فرددت معه المزامير.



اعتمد داود على العمل ليكسب عيشه الحلال، وأتقن صناعة آلات الحرب ويسر الله له الأمر حتى ألان له الحديد، كما يقول سبحانه: **﴿ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد، ان أعمل سابغات**



وقدر فى السرد واعملوا صالحا﴾ (سبأ ١٠-١١) ويقول: **﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم﴾** (الأنبياء ٨٠)

ليس فى حياة داود عليه السلام مايستحق التوضيح من النصوص الواردة فى حقه، إلا مانسب إليه دون سند صحيح ، من ادعاء حبه لزوجة أحد قواده، وتدبير حيلة للخلاص منه حتى يتزوجها، وفى هذه الحادثة أمور كثيرة يتنزه أن يتورط فيها عامة الناس، فضلا عن المصطفين الأخيار من رسل الله، الذين بعثوا للدعوة إلى القيم الأخلاقية العالية التى تسعد بها الانسانية ، وحاول المغرمون بالغرائب والناقلون عن أهل الكتاب ، دون تحر لما ينقلون ، أن يحملوا على تلك الحادثة قول الله سبحانه وتعالى فى سورة «ص» :

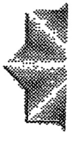


﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب، إذ دخلوا على داود ففزع منهم، قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولاتشطط واهدنا إلى سواء الصراط، ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا



الصالحات وقليل ماهم، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ، فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب، ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ (٢١ - ٢٦).

إن ظاهر هذه الآيات يدل على خصومة حقيقية بين فريقين فى غنم مشتركة بينهما ، وأن داود عليه السلام عندما وقع فى خطأ استغفر ربه منه وخر راكعا ورجع إلى الله، كما أن أمر الله لداود بالحكم بالحق وعدم اتباع الهوى قد يعلم منه أنه ظلم فى حكمه ومال مع الهوى، فكيف يكون ذلك ؟



إن الكلام فى تفسير هذه الآيات كثير ، وأدعى ، بعض المفسرين أن النعجة هى المرأة، وان القصة درس لداود الذى طمع فى زوجة القائد ولم يقنع بما عنده من النساء ، وهو كلام يتنافى مع مقام الأنبياء ، ومن أحسن ما قيل فى ذلك ، أن الخصومة حقيقية فى شركة أغنام ، وأن المتخاصمين أرادا التحاكم إلى داود على عجل حتى يحسم النزاع ، غير أن داود كان إذ ذاك فى خلوته الخاصة يعبد ربه ، كنظام وضعه لنفسه



فى توزيع أعماله بين الله وبين الناس ، ولم يجد الخصمان وسيلة للوصول إليه إلا تسور المحراب الذى يتعبد فيه ، فظن داود ، أن مجيئهم فى هذا الوقت وبهذه الصورة يراد به شر ، فطمأناه وطرحا أمامه الموضوع ، وبدأ أحد الخصمين بتوجيه الاتهام إلى الطرف الآخر ، فنطق داود بالحكم بإدانة صاحب الغنم الكثيرة قبل أن يدلى بحجته ، وهنا أحس داود بأنه كان على غير صواب فى ظنه أن هؤلاء يريدون شرا وأن الله امتحنه بالخوف منهم فاستغفره مما حدث به نفسه ومن الله عليه بقبول استغفاره وأنزله عنده منزل كريما. ثم نبهه سبحانه إلى أن مما يساعد على اصابة الحق والعدل فى الحكم التأنى حتى تسمع حجة الطرفين ، وعدم التأثر بمظاهر الناس ، والبعد بالعواطف عن التدخل فى الحكم ، فقد يكون المدعى مخطئا وظاهره يوحى بالصدق ، كأخوة يوسف الذين رموه فى الجب وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، مدعين أن الذئب أكله .



إن الذى وقع من داود هو ظنه أن الخصمين أرادا به سوءا فندم على هذا الظن واستغفر ربه ، وهو ظن له مايبرره ، والأنبياء إن وقع منهم مالا يؤاخذون عليه إلا أن مقامهم يضعهم دائما فى موضع حساس لايحبون أن يؤخذ عليهم



ماهـو فى صورة مايـؤاخذ عليه ، ونطقـه بالحكم قبل سماع المدعى عليه ربما كـان لأنه سكت ولم يتكلم فكـان سكـوتـه اقـرارا بما نسب إليـه ، وتـوجيـه الله لـه بـاتبـاع الحق وعـدم الميل مع الهوى، على الرغم من صـواب حكمه ، لايدل على ظلمه أو ميلـه مع العواطف ، فقـد يكون تـوجيها بالاستمـرار على اتباع الحق ، كما قـال سبحانـه لنبيه: **﴿يأيها النبى اتق الله ولاتطع الكـافرين والمنافقين﴾** (الأحزاب ١) فلم يكن منه عصيان حتى يؤمر بالتقوى.



وبعد ، فإن مما نتأسى بـه فى قصة داود عليه السلام ، الرجـوع إلى الله فى كل الأحوال ، والصبر على مايقوله أهل الباطـل ، وعدم الأنفة من مزاولة أى عمل لكسـب عيش شريف ، وان الصـوت الحسن نعمة من نعم الله تلين به القلـوب وترتاح إليـه الأعصاب ، فليكن تـرويحنـا عن النفس بما شرع الله وبما يعطيهـا نقاء وصفـاء واستقامـة. بعيدا عما يغضب الله.



١٥ سليمان عليه السلام

سليمان بن داود عليهما السلام شارك أباه فى الحكم وأفاد خبرة وتجارب جعلته أهلا لأن يرث الملك من بعد أبيه ، ويشير إلى نبوغه وموهبته قوله سبحانه : **﴿وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما﴾** (الأنبياء ٧٨، ٧٩) **﴿ولقد أتينا داود وسليمان علما وقالا الحمدلله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين﴾** (النمل ١٥، ١٦).

تولى سليمان الحكم بعد أبيه واختاره الله



رسولا، وأعطاه من المنح والعطايا مالم يعط أحدا ممن سبقه ، فسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوها شهر ورواحها شهرا ، وأسال له عين القطر.. أى النحاس ليصنع منه مايشاء ، وسخر له من الشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الأصفاد ، يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، وسخر له الطير وعلمه منطقها بل منطق الحيوانات كالنمل عندما مر بواد فحذرت نملة منه فتبسم ضاحكا من قولها ، وجاءه الهدهد بخبر ملكة سبأ وقومها الذين يعبدون الشمس من دون الله ، بل أودع الله فى بعض رجاله قوة وكرامة فاقت فى بعض أحوالها مايقوم به الجن من الغرائب: ﴿**قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك**﴾ (النمل ٤٠) وكان من نتيجة ذلك مجىء ملكة سبأ من اليمن إليه وهو بأرض الشام وانتهى أمرها إلى ماحكاه القرآن الكريم: ﴿**قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين**﴾ (النمل ٤٤).



وفى حياة سليمان عليه السلام نقطتان تحتاجان إلى توضيح ، أولاهما قوله سبحانه: ﴿**ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب . إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ،**



فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ، ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق﴾ (ص ٣٠ ـ ٣٣).

يقول المفسرون ان خيله عرضت عليه واستمر عرضها وهو يصلح شأنها ويطمئن عليها حتى غربت الشمس وفاتته صلاة العصر ، فندم وقال: **﴿إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى﴾** وكفر عن خطئه بإعاتها إليه وذبحها قربانا لله ، وكان ذلك معهودا فى شريعته ، وهو بهذا لم يكن متعمدا اخراج الصلاة عن وقتها ، بل كان ساهيا مشغولا بأمر آخر ، غير أن هذا الأمر الاخر لم يكن لهوا بالدنيا وفتنة با لمال ، بل كان اعدادا للخيل للجهاد فى سبيل الله ، فقد شغل بواجب عن واجب وبخير عن خير ، ولما كان مثل هذا لايؤاخذ عليه عامة الناس ، جعله سليمان مما لايليق به فتقرب بذبحها حتى لايشغل بعد بها عن الصلاة، ولكن ربما يقال هنا : إن ذبح هذه الخيل وهى من أجود الأنواع قد يكون فيه خطورة لأنه اهلاك لعدة الجهاد وقد لايتيسر له مثلها إلا بعد حين ، ولأجل هذا قد يكون من الأوفق أن يقال : إن سليمان عليه السلام ، وهو فى استعراض خيله ، كانت من الكثرة بحيث احتجبت عنه ببعدها ، فأمر بردها للاطمئنان عليها وإظهار غبطته بها وأخذ يمسح على أعناقها





وسوقها كما يلاحظ فيمن عطفه وحنوه على خيله بمثل هذه اللمسات الحانية ، ولقد استغرق استعراضها وقتا طويلا شغله عن أن يذكر الله كما هو دأب المقربين وبخاصة الأنبياء ، فرجع إلى ربه يذكره ويعوض مافاته ، وهذا مايشير إليه قوله سبحانه وهو يمدح سليمان: ﴿ **نعم العبد انه أواب** ﴾ وليس فى هذه الآية مايدل على وقوعه فى خطأ ، وغاية ما فيها انه شغل بخير عن خير ، أو لعله لم يقل وهو فرح بها ماقاله حين جاءه عرش ملكة سبأ فى طرفة عين: ﴿**هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر**﴾ (النمل ٤٠) والأنبياء أوابون إلى الله حتى فيما يتسامح فيه مع عامة الناس من خلاف الأولى.



النقطة الثانية فى حياة سليمان عليه السلام قوله تعالى: ﴿**ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ، قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب**﴾ (ص ٣٤_٣٥).

لقد كان سليمان فى ملكه الواسع يحتاج إلى قوة تحميه وعشيرة تساعده، وكان يتمنى أن يكون له من الأولاد مايكونون عونا له ، وقد صح فى الحديث الشريف : قال سليمان لأطوفن اليوم على أربعين امرأة من نسائى تأتينى فى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله . ولم يقل إن


شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة وجاءت بولد غير كامل الخلقة فأخذته القابلة. ووضعته على كرسيه ، وقال نبينا عليه الصلاة والسلام : فوالذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرسانا ، فالذى حدث من سليمان هو تركه المشيئة ، وهذا فيه ارتكاب لخلاف الأولى ، ولكن سليمان عده ذنبا واستغفر ربه منه ، وهذا لايقدح فى العصمة ، وبالاعتماد على هذا الحديث الذى رواه البخارى فى التفسير نرى انه لم يقع من سليمان ذنب يطلب له المغفرة، وقد أحس بأنه ليس كل مايتمنى المرء يدركه ، ولئن كان الله قدّر له أن يكون من بنيه جند قوى معه ، فقد سأل ربه أن يعوضه خيرا مما لم يتحقق له ، على أن يكون من نوع فريد لايكون لغيره ، ولذلك جاء عقب هذا الدعاء قوله سبحانه: ﴿**فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد ، هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى وحسن مآب**﴾ (ص ٣٦ ـ ٤٠).



هذا ، وكل مايقال عن سليمان وسلطان الجن فى أيامه ، وانهم تسلطوا على ملكه عن طريق خاتمه الذى نسيه ، وأنه صار إلى حال بئيسة مدة أربعين يوما حتى عرف السر فى ذلك وعاد



إلى سابق عهده بالملك ، كل ذلك لا دليل عليه ، وهو يتنافى إلى حد كبير مع مقام الأنبياء ، وهو من المرويات الاسرائيلية التى يجب الحذر منها .

وبعد فإن من أبرز ما يجب أن نتأسى به فى قصة سليمان عليه السلام ، أن الدنيا وإن أقبلت بما أقبلت من خير فلن يدوم لأحد نعيمها ، وأن الواجب على كل من أفاء الله عليه من نعمه أن يتذكر المصير النهائى ، وأن يشكر ربه عليها ولايطغى بها ، لقد قال سليمان عندما سمع كلام النملة: ﴿**رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين** ﴾(النمل ١٩) وقال عند مجىء العرش فى طرفة عين : ﴿**هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أأكفر**﴾ (النمل ٤٠) كما أن من العبر أن فضل الله عظيم ، وهو لا يبخل على من دعاه إذا علم أنه خير له ، فقد يمنع الله عبده الصالح مايرجوه لحكمة يراها سبحانه ولايدريها عبده ﴿ **والله يعلم وأنتم لاتعلمون**﴾ (البقرة ٢١٦).





١٦ أيوب عليه السلام

من الرسل الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم أيوب عليه السلام ، وقد اختلف في ترتيبه الزمنى بين الأنبياء فمن قائل انه كان قبل موسى عليه السلام، ومن قائل آخر أنه كان قبل إبراهيم أبى الأنبياء بأكثر من مائة عام ، ونحن لايهمنا تعيين زمنه ولا تحديد قومه الذين أرسل فيهم ، بقدر ما يهمنا ما اشتهر به من البلاء الشديد والمحنة القاسية فى جسده وماله وأهله ، إلى حد كثرت فيه القصص واختلفت الروايات التى صورت حياته بصورة تتنافى مع كرامة الأنبياء عند الله ، ومع مهمتهم فى الدعوة وتعليم الناس ، وأكثر ما ورد من هذه القصص مأخوذ عن المصادر الاسرائيلية ، إلى جانب ما أدخله



الخيـــال من صـــور تستثير العطف والــــرحمة ، وتنتهى إلى عبرة الصبر والتحمل ، حتـى وضعت فى ذلك روايات أدبية وأخـرجت فى شكل تمثيليات أو مسرحيات تحمل عناوين مختلفة .

وقد ورد الحديـث فى القرآن الكريم عـن أيوب عليه السلام مجملا ، يحمل حقيقة بلائه ونتيجة صبره فى قولـه تعالى : ﴿ **وأيوب إذ نـادى ربه أنى مسنـى الضر وأنت أرحـم الــــراحمين، فاستجبنا لـه فكشفنـا مابه من ضر ، وآتيناه أهلـه ومثلهم معهم رحمة من عنـدنا وذكـرى للعابدين**﴾ (الأنبياء ٨٣ ـ٨٤) وقولـه سبحانه: ﴿**واذكر عبدنا أيـوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنُصـبٍ وعذاب، أركض برجلـك هذا مغتسل باردٍ وشراب، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منـا وذكـرى لأولى الألباب، وخـذ بيدك ضغثا فاضرب بـه ولاتحنث إنا وجدناه صابرا نعـم العبد إنه أواب**﴾ (ص ٤١ ـ ٤٤) فتقـرر الآيتـان الأوليـان أن ضرًامســه ، وأن الله كشفه بعد دعائه إياه، وعوضه خيرا مما فقد، كما تقـرر الآيـات التاليـة أن الشيطـان مســه بتعب وعـذاب، وأن الله وصف له دواء كشف بـه ضره، وأنه عوضه خيرا مما فقد، وأنه أمره بأخذ ضغث ليضرب بـه امرأتـه حتى يبر بيمينـه، كما تصف الآيات أيـوب بالصبر وتمدحـه بأنه أواب إلى الله،



هذا هو مجمل ماتقرره الآيات، أما تفصيل ذلك ففيه كلام كثير، وإذا أردنا أن نوضحه فلن نجد مصدرا صحيحا موثوقا به يساعدنا على ذلك ، وليس هناك إلا الاسرائيليات المأثورة عن أهل الكتاب ، وإذا كان لنا أن نستعين بها في توضيح ماابتلي به أيوب وماانتهى إليه أمره ، فلا يجوز لنا أن نتجاوز ما لايمس كرامة الأنبياء ولا يتنافى مع مهمتهم التعليمية الاصلاحية .

روى انه عليه السلام كان له سبعة بنين وسبع بنات وثلاثة آلاف بعير وسبعة آلاف شاة، وخمسمائة عبد، وزرع ونخيل، فابتلاه الله بذهاب ولده وبمرض بدنه سنوات يقال انها تقرب من العشرين ، وقالت له امرأته يوما : لودعوت الله عز وجل ، فقال : كم كانت مدة الرخاء ؟ فقالت : ثمانين سنة . فقال استحى من الله أن أدعوه ، وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى ، فلما كشف الله عنه أحيا ولده بأعيانهم ورزقه مثلهم معه .



وهذا الكلام ليس فيه مايتنافى مع عصمة الأنبياء وكرامتهم ، والانسان حر فى ان يقبله أو يرفضه ، ثم روى فى سبب بلائه انه ذبح شاة فأكلها وجاره جائع ، أو رأى منكرا فسكت عنه ، أو ابتلاه الله لرفع درجاته بلازلة سبقت منه ، ونحن نرفض أنه سكت على منكر يستطيع



انكاره ، فذلك يتنافى مع مهمته التى بعث من أجلها ، ولايهضم العقل بسهولة أن يبتلى الله نبيه بهذا البلاء العظيم ، لعدم اطعام جاره الذى قد يكون غير عالم به ، ويرجح أن يكون بلاؤه لرفع درجاته بلا زلة سبقت منه.

ويهمنا فى هذا المقام أن نوضح ماورد فى القرآن مما يتصل بعصمة الأنبياء وتنزيه ساحتهم عن كل مايتنافى مع دعوتهم ، والآيات الواردة فى حقه قد يفهم منها أن أيوب شكا مما مسه ، وهذا يتنافى مع واجب الصبر والرضا بقضاء الله ، وأبسط رد على أن الشكوى من البلاء تكون مذمومة إذا كانت لغير الله ، أما الشكوى فهى تضرع ودعاء ، كما شكا يعقوب بثه وحزنه إلى الله ، ومن شكا ضره لمخلوق تبرما بقضاء الله للاستعانة على كشف ضره بالوسائل العادية جريا على قانون الأسباب والمسببات فقد ارتكب اثما عظيما ، يقول الشاعر الحكيم :



وإذا أتتك مصيبة فاصبر لها
صبر الكرام ، فإن ربك أرحم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما
تشكو الرحيم إلى الذى لا يرحم

كما قد يفهم من الآيات أن الشيطان مس أيوب بنصب أى تعب وعذاب ، وكيف يتسلط الشيطان على عباد الله المخلصين ؟ والجواب: إن

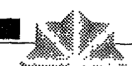


مـاحـدث لأيـوب لايعـدو أن يكـون وسـوسـة وخواطـر، أو حديث نفس بـالجزع والضيق مما نزل به ، وهذه الأحوال النفسيـة مما عفا الله عنه، فإن طبيعـة نفس الانسـان لاتنفك عنهـا ، والله لايكلف نفسا إلا وسعها ، وأيـوب عليه السلام لم يستجب لها ، ولم يصل بالتأثـر بها إلى حد الهم أو العـزم الذى هـو منـاط المؤاخذة ، وإنما كـان يـدعو ربـه أن يصرفها عنـه ويوفقـه للصبر على ماقدره الله عليه.

وكـانـت نتيجـة هـذه المعـركـة النفسيـة والامتحان القاسى قرار الله سبحانه بقوله: ﴿**إنا وجدنـاه صابـرا نعم العبـد إنه أواب**﴾. وهو قرار يشهـد بنقاء سريرة أيـوب وصدق عـزيمته وقوة إيمانـه بربـه ورضاه بقضـائه. قرار ينفى كل مايقال عنه أو يلصق بـه مما لايدل عليه دليل ولايتفق وعصمة الأنبياء.



وبعـــد ، فـإن فى الآيات اشـارة إلى قانون الأسباب والمسببـات الذى أمرنـا الله بالأخـذ به ، وان كـانت قـدرة الله وعطاؤه وفضلـه فـوق كل شىء، فقـد أنبع لأيوب عينا شرب منهـا واغتسل فشفـاه الله ، وفى الآيـات بيـان لبعض طـرق التخفيف والـرحمة التى ينفذ بها الـواجب فى غير حـرج وإعنـات ، فقـد أمـر الله أيـوب أن يضرب امـرأته بضـغث ، أى حـزمـة صغيرة من حشيش



ونحوه ليبر فى قسمه أن يضربها مائة إذا برىء ، وذلك بسبب تعجلها الشفاء له من الله أو ابطائها عليه فى بعض خدماته ، وهى رخصة باقية كما يقول العلماء .

والقصة تشيد بالصبر وترفع قدره ، وكان هو المؤهل الأول لاختيار الله لأيوب نبيا ، على رأى من يقول : إن البلاء كان قبل النبوة، وعلى المؤمن أن يكون فى تقلبه فى محن الحياة كما يقول الحديث الصحيح : «المؤمن كالخامة من الزرع تفيئها الريح ، تصرمها مرة وتعدلها أخرى حتى تهيج. وفى رواية : «حتى يأتيه أجله» رواه مسلم.





١٧ يونس عليه السلام

يونس بن متى عليه السلام من الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم باسمه وبوصفه بذى النون وبصاحب الحوت ، والنون هو الحوت، وكان رسولا إلى أهل نينوى بالعراق ، وقد أثنى عليه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله كما فى الصحيحين: «ماينبغى لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى» وفى رواية مسلم: «ولاأقول ان أحدا أفضل من يونس بن متى» وكان ذلك فى معرض تهدئة الثورة فى التعصب لبعض الأنبياء ، كما أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكره باسم الأخوة ـ كما تقول كتب السيرة ـ عندما قابل عداسا وهو فى الطائف عند بستان لعتبة وشيبة ولدىْ ربيعة. يقول الله

سبحانه فى سورة الصافات: ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ، إذا أبق إلى الفلك المشحون، فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ، فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه إلى مائة ألف أويزيدون ، فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾ (١٣٩ ـ ١٤٨)

ويقول سبحانه : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين﴾ (الأنبياء ٨٧ـ٨٨)



ويقول فى سورة القلم: ﴿ فاصبر لحكم ربك ولاتكن كصاحب الحوت، إذ نادى وهو مكظوم، لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم، فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾(٤٨ ـ ٥٠) ويقول فى سورة يونس: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ (٩٨).

يستفاد من هذه الآيات أن يونس عليه السلام دعا قومه وخوفهم من عقاب الله إن لم



يؤمنوا، ثم تركهم غاضبا عليهم وتوجه إلى مكان آخر ركب له سفينة كانت مشحونة فكادت تغرق، وعند اقتراع الركاب على من يتخلصون منه فداءً لباقيهم، وقع السهم على يونس ، وانتهى الأمر إلى إلقائه فى البحر ، فالتقمه الحوت ومكث فى بطنه مدة لايعرف قدرها على وجه التحديد وسبح ربه داعيا فنجاه الله وطرحه الحوت على الشاطىء متعبا ، فأنبت الله له شجرة من يقطين، وهو القرع أو كل زرع لا ساق له ، وبعد ذلك أرسله إلى قوم عدتهم مائة ألف أو يزيدون ، يقال انهم هم الأولون ، ويقال انهم غيرهم ، فاستجابوا له ومتعهم الله إلى حين آجالهم ، ويقال : إن قومه الذين عارضوه لما عاينوا أمارات العذاب آمنوا فكشف الله عنهم عذاب الدنيا ، ومتعهم بالحياة حتى جاءت آجالهم الطبيعية .



والذى يلفت النظر فى قصة يونس مما يمس عصمة الأنبياء ، قوله تعالى: ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ فمن الذى غاضبه يونس ، وكيف يظن أن الله لن يقدر عليه؟ كما أن قول الله عنه ﴿ **وهو مُليم** ﴾ يدل على ارتكابه مايلام عليه ، وإقرار يونس بأنه من الظالمين ، يدل على ارتكابه منهيا عنه، وكذلك تحذير الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بألا



يكون كصاحب الحوت، يدل على أن فى يونس أمرا غير مرضى عنه ولا يجوز التشبه به فيه ، فكيف ذلك ؟

والجواب : أن يونس لما رأى معارضة قومه تركهم مغاضبا لهم ، لا مغاضبا لله ، وكانت هذه المغاضبة من أجل موقفهم من الإيمان ، وليست لأمر شخصى يخصه ، فهى مغاضبة خالصة لوجهه سبحانه ، وليس فيها إذن عيب أو يؤاخذ عليه، وقد يقال إذا لم يكن فى المغاضبة بهذه الصورة ما يؤاخذ عليه فكيف يمتحنه الله هذا الامتحان الكبير بابتلاع الحوت له ؟



والجواب : إن الامتحان كان لتعجله بمفارقتهم وعدم انتظار أمر من الله ، وكان الأولى له أن ينتظر، وإن كان له العذر فى أنه اجتهد وأداه اجتهاده إلى ذلك حيث لم يكن هناك أمر من الله بالبقاء معهم على كل حال ، لكن عتاب الله لأوليائه المقربين قد يكون على مايتسامح فيه مع العاديين ، ومما يدل على أن العقاب كان للتعجل بالهجرة ، أمر الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر على مايقوله قومه ونهيه أن يكون كيونس فى عدم الصبر .

على أن بعض العلماء رأى أن هذه المغاضبة كانت قبل أن يرسله الله ، وقد تركهم إلى جهة أخرى، وكان الأجدر به كمصلح أن يبقى معهم،



ويشفع لرأيهم قول ابن عباس رضى الله عنهما : ان رسالة يونس كانت بعد نجاته من البحر ، وظن يونس أن الله لن يقدر عليه ، ليس فيه نسبة العجز إلى الله ، ولكن القدر هنا يعنى التضييق ، كقوله تعالى : ﴿ **لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله**﴾ وقوله: ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ (الرعد ٢٦) . فيونس ظن ، والظن قد يراد به اليقين كما جاء فى آيات كثيرة ، ظن أن الله لن يضيق عليه واسعا وسيبدله قوما غير قومه ، وليس فى ذلك ما يعاب عليه .



هذا ، وشهادة الله ليونس بأنه اجتباه وجعله من الصالحين ، تنبهنا إلى عدم اتهامه يما يتنافى فى هذه الشهادة العظيمة .

وفى قصة يونس عبر ، منها أن المتصدى للإصلاح يلزمه الصبر والتحمل وسعة الصدر بالأمل ، وأن المؤمن إذا صدق فى عبادة ربه ودعائه استجاب الله له ونجاه من أخطر المهالك وفرج له أشد الأزمات ، وأن الله سبحانه مع أنبيائه وأوليائه يتصرف بما لا يخضع لقانون الأسباب والمسببات ، كالمعجزات والكرامات الخارقة للعادة ، فخالق القوانين هو القادر على تغييرها ، فهو سبحانه على كل شىء قدير ، وأن بعض التسبيح والدعاء خير وأقوى من البعض



الآخـر ، ومنه دعـاء يونس فى ظلمـة بطن الحوت مشفـوعـا بـالجزم بأنه لا الـه إلا اللـه وحـده ، والاقرار بضعـف العبد وحاجتـه لربـه ، ووصم نفسه بالذل ونسبتها للتقصير والظلم .

وفى هذا الجو الذى امتـزجت فيه قوة الإيمان مع قـوة الـرجـاء مع الذلـة والخضـوع للقـادر القوى القاهـر مالك الأمر كله ، يستجـاب الدعاء ويتحقق الــرجـاء، ولـذلك قـــال بعض العلماء استنـادا إلى مأثورات عـن النبى صلى الله عليـه وسلم : إن اسم اللـه الأعظـم الـذى إذا سئل بـه أعطى ، وإذا ادعى بـه أجاب ، وهـو دعاء يـونس عليه السلام ، وهـو ليس خاصا به بل عـاما لكل مسلم كما قال سبحـانه عقبه : ﴿ **وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ رواه الترمذى والنسائى والحاكم.





١٨ مريم ويحيى وعيسى عليهم السلام

أسرتان من فرع اسحق بن ابراهيم عليهما السلام . تكادان تكونان أسرة واحدة ، توجد ثلاث شخصيات هامة فى حياتهم أمور تحتاج إلى توضيح، وهم يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم وأمه عليهم السلام ويحيى وعيسى رسولان، أما مريم فليست لها رسالة استنادا إلى قوله تعالى: **﴿وماأرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم﴾** (النحل ٤٣) وان كان مختلفا فى نبوتها استنادا إلى تلقيها الوحى من الملائكة عن الله سبحانه: **﴿يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين﴾** (آل عمران ٤٣).

وقد شاءت إرادة الله أن تكون الظروف التى ولد فيها ونشأ هؤلاء الثلاثة ظروفا غير عادية ،



انتهت معها الذرية من فرع اسحق لتنتقل النبوة منه إلى فرع إسماعيل فى شخص خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام . فبعد ولادة مريم ابنة عمران وكفالة زكريا زوج خالتها لها توجه بالدعاء إلى ربه ، وقد وهن عظمه واشتعل رأسه شيبا أن يهبه غلاما ذكيا، فوهبه يحيى عليه السلام ، وأكرمه الله بالنبوة. وجاء فى الحديث عنه قوله سبحانه: **﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين﴾**(آل عمران ٣٩) وقوله: **﴿يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا، وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا ، وبرا بوالديه ، ولم يكن جبارا عصيا ، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا﴾**. (مريم ١٢ ـ ١٥).



والحكم الذى أتاه الله فى صباه هو الفهم الذكى والاقبال على العلم ، والكتاب الذى أمر أن يأخذه بقوة هو التوراة التى توارث أنبياء بنى إسرائيل العمل بها والدعوة إليها ، وقد يفسر الحكم بالنبوة ، وقد اعطيها قبل أن يبلغ الثلاثين كما قال بعض المفسرين ، وبلوغ الأربعين فى النبوات غالب وليس شرطا أساسيا ، ووصف الله يحيى بأنه حصور يحتاج إلى توضيح ، فالحصر



يعطى معنى المنع ، وقد منعه الله من ارتكاب الفواحش فآثر الزهد والعبادة الخالصة لله، وقيل كان ممنوعا من مقاربة النساء، وإذا كان هذا باختياره فهو مدح ، وإذا كان طبيعيا فهو من الله لحكمة ، ولايعاب أحد على ماهيأه الله له ، وقد وصفه فى الآيات المذكورة بالأوصاف الطيبة فلامطعن عليه بعد شهادة الله له .

وعيسى نبى الله الذى حملت به أمه على غير المعتاد ، الصقت به وبأمه التهم كما يقول سبحانه : **﴿فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا ياأخت هارون ماكان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا﴾**. إلى أن يقول : **﴿قال إنى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا﴾** إلى آخر الآيات (مريم ٢٧ ـ ٣٤) .



وقد يقال هنا : كيف تكون مريم أختا لهارون وبينها وبينه قرون عديدة ، والجواب : إن هارون هنا ليس هارون أخا موسى الرسول ، فقد كان رجلا صالحا معروفا شبهوها به استغرابا ، أو كان رجلا مشهورا بالفسق شبهوها به اتهاما، وقد وجه مثل هذا السؤال إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكانت الاجابة كما جاء فى صحيح مسلم : كانوا يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين . وعيسى حين تكلم



فى المهـد وأقر بأن الله جعله نبيا لايعنى أن نبوته جاءتـه فى المهد ، فهى فى علم الله نبوة ، وسيـوجه الله اختياره بعـد أن يبلغ مبلغ الرسالـة ، على حد قولـه تعالى: ﴿أتى أمر الله فـلاتستعجلوه﴾ أى سيأتى واتيانه محقق كأنه وقع .

وقد بـرأ الله ساحـة عيسى وأمه من افتراءات تولى كبرها اليهود ، كما قـال سبحانه فى حقهم فى سورة النســاء :﴿**وبكفرهم وقـولـهم على مريم بهتانا عظيما وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مـريم رسول الله، ومـاقتلـوه وماصلبـوه ولكن شبه لهم**﴾(١٥٦، ١٥٧) وقال سبحانه: ﴿**مـا المسيح بن مريـم إلا رسول قـد خلت من قبلـه الـرسل وأمـه صـديقـة كـانـا يأكـلان الطعام**﴾ (المائدة ٧٥)



وقال: ﴿**لقـد كفر الـذين قـالوا إن الله هـو المسيح بن مـريم**﴾ (المائدة ٧٢) وقـال: ﴿**لقـد كفر الـذين قالوا إن الله ثالث ثـلاثة**﴾ (المائدة ٧٣) وذلك للرد على اتباعه الـذين تغالوا فى حبه ، وخلطوا العقيدة الصحيحة بالفلسفات الاغريقية والـرومـانيـة، ولـذلك نهى النبى صلى الله عليـه وسلم اصحابه عن التغـالى فى حبه حتى لايرفعوه فـوق قـدره فقـال: «لاتطـرونى كما أطـرت النصارى المسيح بن مريم ، ولكن قولوا : عبدالله ورسوله» رواه البخارى. والتغالى فى الحب يعمى ويصم .



هذا ، وقد يقال ـ بعد أن قرر القرآن أن الله رفع عيسى ، وبعد أن جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم ـ أنه سينزل آخر الزمان والسؤال : هل رفعه الله حيا أو بعد أن توفاه ؟

جاء فى سورة آل عمران: ﴿ **إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى**﴾ (الآية ٥٥) وظاهر النظم ان الله توفاه ثم رفعه ، ولكن يجب أن يعلم أن العطف بالواو لايفيد ترتيبا ولاتعقيبا، فالأمران واقعان ، وقد يكون رفعه قبل وفاته التى ستكون آخر الزمان، وإذا حمل الرفع على أنه بعد الوفاة ، فالمراد بالوفاة النوم ، كما جاء ذلك فى عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿**وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى**﴾ (الأنعام ٦٠) وقوله: ﴿**الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى**﴾(الزمر ٤٢) فقد ألقى الله عليه النوم ورفعه حتى لايدخل قلبه الرعب من هذه الظاهرة الغريبة.



وبعد ، فإن فى هذه الصفوة المتازة من الشخصيات عبرا ، منها عدم اليأس من رحمة الله حتى لواستحكمت حلقات الضيق ، فكل شىء



على الله هين، فقد اعطى زكريا ماتمناه بعد أن بلغ من الكبر عتيا وكانت امرأته عاقرا ، ومنها أن العبد إذا ابتلى فصبر كان الله معه بالعناية ، وإذا اتهم زورا برأه الله ولو بعد حين : فمريم حين أجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت: **﴿ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا﴾** (مريم ٢٣ ـ ٢٦) .



وقد جعل عيسى الذى اتهمت به دليلا على براءتها فنطق بالحق وهو فى المهد. ومن العبر أن ظلام الباطل سيمحوه نور الحق كما قال سبحانه: **﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا﴾** (النساء ١٥٩) وان القول الحق فى عيسى كما قال سبحانه: **﴿ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ، ماكان لله ان يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾** (مريم ٣٤ـ٣٥).



١٩ محمد صلى الله عليه وسلم

نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو استجابة دعوة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، وهما يرفعان القواعد من البيت العتيق: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك انت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾(البقرة ١٢٨، ١٢٩) وهو الوحيد من فرع اسماعيل فى سلسلة النبوات ، فكان خاتمتها وكان خيرها على الاطلاق ، بل خير الانسانية جمعاء على ماصح فى الحديث الشريف، وكانت رسالته قمة التطور للرسالات ، وشريعة بها أكمل الشرائع وأتمها



وأوفاها ، وكتابه هو المهيمن على كل الكتب والمصحح لكل المفاهيم والهادى للتى هى أقوم ، وفيه تبيان لكل شيء ، وقد استهدفت حياته صلى الله عليه وسلم وكذلك شريعته شكوكا واتهامات باعتباره ممثل الأنبياء والرسل ، والشاهد لهم والمدافع عنهم وإذا كانت الرسالات السابقة لخصوصيتها قد استنفدت أغراضها ونسخت، ودخلها مادخلها من التحريف والآراء والطقوس التى لاتصلح للحياة فى عصور التطور المتلاحقة، وأصبح نقدها سهلا .

إن رسالة الاسلام لعمومها وخلودها وقوة حجتها وأصالة تشريعها ومعجزة كتابها هى القلعة الحصينة الصامدة أمام كل محاولات التشكيك ، التى تفنن المغرضون فيها ، ولايفتأون يصوبون إليها السهام من كل جانب ، حتى يفسح المجال لآرائهم هم ولمذاهبهم التى يحاولون بها فرض سلطانهم وبسط نفوذهم .



وبحمد الله قد هيأ الله نبيه محمدا صلى عليه وسلم ليحمل أمانة هذه الرسالة الضخمة ، وهيأ لأتباعه من يدافعون عن شريعته ويصدون غارة الأعداء على كتابه ، هؤلاء الأعداء الذين يتلمسون أية ثغرة فى حياته الشخصية أو فى شريعته لينفذوا منها إلى مايريدون، لكن هيهات .

وقد أعد العلماء وهم حراس الثغور فى كل



حين أسلحة قوية واستحكامات قوية ترد كيد الكافرين فى نحورهم ، فلم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا تحدثوا عنها وجلوها وأزاحوا الشبه عنها ، بل إن بعضا منهم تخصص فى هذا الفرع من العلم ، وأفرغ فيه كل جهده ، وما علينا الآن إلا أن ننقب عن هذه الكنوز فى بطون الكتب ، ونعيد شهر أسلحتها فى أوجه الطاعنين المغرضين ، أو نطلق أشعتها للعمى الذين لايعرفون من دينهم إلا القشور ، حتى يتعرفوا على حقيقة دينهم ، ويتحصنوا ضد من ينفثون فى عقولهم وقلوبهم سمومهم .

ولشدما أعيا الطعن فى الاسلام ـ كدين ـ حيل الماديين والمبشرين والمستعمرين ، وكادوا ـ لولا التعصب ـ يعلنون صدق هذا الدين ، فوقفوا أخيرا عند حد الاعتراف به كدين منزل من عند الله ، ولكن كنظام تفتقت عنه عبقرية محمد ، فكثر فى كتاباتهم التعبير عن الاسلام بعبارة «المحمدية» أى النظام المنسوب لمحمد ، وقد اغتر بعض المسلمين باتجاه بعض من كتبوا عن محمد صلى الله عليه وسلم فمجدوا فيه البطولة . ووضعوه فى قائمة الأبطال مثل كارليل فى كتابه ، أو ضمن الرجالات الذين غيروا وجه التاريخ كصاحب كتاب «المائة الخالدين» الدكتور مايكل هارت الذى جعل محمدا صلى الله عليه وسلم على رأس



القائمة ، وجعل بعض الأنبياء فى مرتبة أدنى من الرجال العاديين ، وذلك دليل على أنه لايعترف بالرسالات كدين إلهى، بل كنظام وضعى منسوب إلى أصحابه ، دون اكتراث بأن طبقة الأنبياء أفضل طبقة فى الوجود: ﴿**الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس**﴾(الحج ٧٥).

إن محمد صلى الله عليه وسلم جمع الله له من الفضل والكمالات والمؤهلات ماجعله جديرا بخاتمة الرسالات ، نشأ يتيما عصاميا يعتمد على نفسه فى كسب قوته ، فرعى الغنم على أجر زهيد لأهل مكة على سنة الأنبياء من قبله ، تدريبا على رعاية البشر ، واشتغل بالتجارة لخديجة وغيرها ، وشارك فى الحياة السياسية والاجتماعية كحلف الفضول لنصرة المظلوم وبناء الكعبة .



ولقد اشتهر بين قومه بعلو الهمة والبعد عن الدنايا حتى أطلق عليه اسم الصادق الأمين ، وارتضوه حكما فى رفع الحجر الأسود إلى مكانه ، وأمينا على ودائعهم حتى بعد أن واجههم بدعوته التي تناهض عقائدهم وسلوكهم ، فإنهم يعلمون أن خلقه من ذاته وكماله طبع فيه ، وقد انتزع منهم الاقرار بذلك حين جمعهم ليعرض عليهم الدعوة : أرأيتم لوأخبرتكم ان خيلا وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟



قالوا ماجربنا عليك كذبا. رواه البخارى ومسلم.

وكان اختيباره صلى الله عليه وسلم من بين قومه وأشرفهم نسبا ليكون أقرب إليهم وأعرف بعيوبهم وأخطائهم ووسائل اقناعهم ، وليكونوا على علم بخلفيته وماضيه ليقيسوا على ضوئها دعوته وسلوكه الجديد فيهم ، ولعل مما يشير إلى هذا قوله سبحانه: ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم**﴾ (التوبة ١٢٨) وقوله فى معرض الحوار بينه وبين قومه ليغير بعض ماجاء به من آيات فيها مساس بعقائدهم وأحلامهم: ﴿ **قل لوشاء الله ماتلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، أفلا تعقلون**﴾ (يونس ١٦) وكانت أميته التى اختارها الله له وسام شرف أو درعا قويا ضد الطعون الموجهة إلى دعوته ، فكيف بأمى يتلو كتابا على أعلى طراز فى البلاغة والتشريع والأخبار ، وكيف بأمى يقرأ أو يتعلم مافى الكتب السابقة حتى يدعى انها كتابه أوحى إليه من الله سبحانه: ﴿**هو الذى بعث فى الآميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾ (الجمعة ٢) ﴿**وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذا**





لارتــاب المبطلــون﴾ (العنكبـوت ٤٨) ويقول البوصيرى فى ذلك :

كفاك بالعلم فى الأمىّ معجزة

فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

إن محمـدا صلى الله عليه وسلم الذى شـهد له الأعداء بـالفضل والصدق ، ما كان ليـدع الكذب على النـــاس ويكـــذب على الله ، والذى منحه الله شرف الاجتهاد والتشاور فيما لم ينزل فيه وحى ليعلم أمته خطـوات الممارسة الصـحيحـة للحياة الاستقلالية بعد النبـوة ـ ووردت فى القرآن آيات يـوهم ظـاهـرها غير مـاميـزه الله به من الفضل والكمال والعصمة ، وغير ماتميزت به شريعه من إحكـام وسداد ، وهـذا مـانحاول ان شــاء الله فى الكتب التـاليـة ان نجلى غـامضـه ونبين الـوجـه الصـحيح فيه.





٢٠ القرآن كلام الله

مما اتهم به النبى صلى الله عليه وسلم قديما وحديثا ادعاءه النبوة ، ونسبة الكلام الذى يقوله إلى الله تعالى زاعما انه وحى منه ، ولهذا الاتهام دوافع ، منها أنه لوكانت هناك نبوة لكانت من الملائكة لا من البشر ، وهذا مادفع الكثيرين من المكذبين للأنبياء سابقا إلى معارضتهم ، فقد قال قوم نوح له: ﴿ **ولوشاء الله لأنزل ملائكة**﴾ (المؤمنون ٢٤) وقال الله فى حق كفار قريش وفى حق الكافرين بالأنبياء جميعا :﴿**ومامنع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا**﴾ (الاسراء ٩٤) ورد الله عليهم بقوله: ﴿**قل لوكان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا**

عليهم من السماء ملكا رسولا﴾ (الاسراء ٩٥) ومنها حسد بعض الناس أن يكون الرسول من غيرهم مع تسليمهم بمبدأ النبوة ، كما حكى الله عن قريش: ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾(الزخرف ٣١) ورد عليهم بقوله: ﴿أهم يقسمون رحمة بك﴾ (الزخرف ٣٢) وحكى عنهم: ﴿ قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ماأوتى رسل الله﴾ (الانعام ١٢٤) ورد عليهم بقوله: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (الانعام ١٢٤) .



وفلسف المتأخرون افكارهم للنبوة والوحى الخارج عن النفس فقالوا : ان مايدعى من الوحى ماهو إلا انبعاثات داخلية أو مشاعر وجدانية فى ساعة من ساعات اشراق النفس أو وقوعها تحت أي مؤثر من المؤثرات ، فيعبر صاحبها عن احساساته بكلام قد تكون له مسحة خاصة مغايرة إلى حدما المعهود من كلام البشر ، يزعم أن ذلك وحى من الله القاه إليه ملك أو نفثه فى قلبه دون وساطة.

وهؤلاء المتأخرون يحاولون بذلك انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالتالى نفى القداسة عن القرآن الذى يقول انه وحى من الله ، ومن العجيب أن بعض هؤلاء لاينكرون نبوة موسى أو عيسى ، ولافارق بين الأنبياء فى ذلك ، وهو دليل تحاملهم على الاسلام بالذات ، ومن



قـديم كـان هـذا الادعاء الـذى حكـاه الله بقوله: ﴿وماقـدر الله حق قدره إذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شىء﴾ (الانعـــــام ٩١) ورد عليهم بقولـه: ﴿ قل من أنـزل الكتاب الـذى جاء بـه مـوسى نـورا وهدى للنـاس﴾ (الانعام ٩١) فكأن الله سبحانه وتعالى يقول : إن الوحى ممكن وان اختبـــار الله لأحد عباده ليكون رسولا داخل تحت قــــدرة الله، فكيف يستكثرون ذلك عليه ؟! على أن الوحى مع امكانه قد حصل بالفعل كالوحى لموسى بالتوراة التى يعرفون عنها كثيرا.



لقد قال المكـذبون للقرآن : إنه ليس وحيا من عنـد الله وأن محمدا افتراه ونسبه إليه على انه من كلامـه هو، وكان لـه نوع من الكلام فيـه تجويد وتنسيق أدعى أنـه قـرآن ، وكلام آخر قاله دون إعمال فكر وروية ودون إجـادة سماه المسلمون حديثـا وسنة، وهـذا يظهر الفـرق بين كلامـه فى الحالتين .

والرد عليهم أن القرآن فى نظمه البديع لوكان من عنـد محمـد لما جـاء محمـد فى أعلى درجـات البلاغة والسمو والوحي يفـاجئه وهو بين قومه ، فإذا فـارقـه جبريل تلا عليهم مـا تلقـاه ، فكيف يمكن فى هـذه اللحظات أن يخلو إلى نفســه لينمق نـوعا مـن الكلام يـدعى انـــه وحي من الله ، وقد حـدث مثل ذلك فى المرأة التــى جـادلتـه فى شأن زوجها الذى ظاهر منها ، فإن الحوار بينه وبينها



لم يكد ينتهي حتى جاء الوحى من الله مقررا الحكم فى هذه المسألة: ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله** ﴾ (المجادلة١) فهل كانت له خلوة مع نفسه جود فيها هذا الكلام ، مع ان عائشة كانت تمشط رأسه وهو يتلقي هذا الوحى.

على أن القرآن إذا كان من عند محمد فقد تحدى به قومه وهم من هم فصاحة وبلاغة فى معلقاتهم وحكمهم وخطبهم المشهورة ، تحداهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا ، وهذا دليل على أنه ليس من صنع البشر حتى المتخصصون منهم ، فكيف بمحمد وهو الأمى ؟ قال تعالى: ﴿**أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم**﴾ (يونس ٣٨ـ٣٩).



قالوا ان محمدا استعان بغيره ليصنع له القرآن ثم ادعى انه وحى من الله ، فكان يتردد على غلام اعجمى بمكة يعلمه كما يعلم الناس دين الله، فاتهموه هو بأنه يتعلم منه ، وتكفل الله بالرد عليهم بقوله: ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه اعجمى وهذا لسان عربى مبين**﴾ (النحل ١٠٣).

قالوا أيضا : ان القران أساطير الأولين



اكتتبهـا محمـــد ونسبهـا إلى الله ، ورد الله عليهم بقوله: ﴿ **وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض** ﴾ (الفرقان ٥ ـ ٦).

لوكان القرآن من عند محمد لكذب في اخباره عن الأمم الماضية وشرائعها ، لأنه لم يقرأ تاريخها ، لكنه كان صادقا وتحدى أولى العلم أن يكذبوه ، قال تعالى :﴿ **كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** ﴾ (آل عمران ٩٣) .



لو كان القرآن من عند محمد لما جاز له ان يخبر عن المستقبل جازما بما يخبر ، وقد تحقق ماأخبر به : ﴿ **غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين** ﴾ (الروم٢).

لو كان القرآن من عند محمد فكيف يخبر عن أدق المعلومات التى لم يكن ليتوصل إليها أحد فى زمنه بوسائله العادية ، وعرفها العلم أخيرا بوسائله الحديثة كالاخبار عن تطور خلق الجنين فى بطن أمه ، فى مواقيت محددة ، ان ذلك يدل على ان هذه المعلومات وحى من العليم الخبير وهو الله سبحانه .

لو كان القرآن من عند محمد فكيف تكوّن المطر والبرد ، وكيف يجرؤ أن يقول ان السماء



فيهـا جبال من السحـب يخرج منها المطـر ، هل حلق بطـائرة فى الجو ورأى صـور هذه الجبـال الغيمية كما يـراها الطيارون فى هذه الأيـام ، قال تعالى: ﴿**ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركـاما فترى الودق يخرج من خلاله ، وينـزل من السماء من جبال فيها من بـرد فيصيـب بـه من يشـاء ويصرفـه عمن يشـاء**﴾ (النـور ٤٣) ومثل ذلك مـاجـاء من المعلومـات الدقيقـة عن الكواكب والنجـوم وعن القـوانين التى أودعهـا الله فى ملكوت السموات والأرض ، تلك القـوانين والأسرار التـى يصل البـاحث المنصف فيهـا إلى الايمان بـالله منزل القرآن من عنده على محمد صلى الله عليه وسلم.



لقد قـرر القرآن أنه وحى من الله معجز ، وأن محمـدا مـاكـان يستطيع أن يأتى بـه من عنـده ﴿**ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾ (النساء ٨٢) ولوجدوا تضاربا بين أوله وآخره ، وبين أحكامه وأخباره ، والاختلاف سمـة البشر فى كلامهم ، وفى كـلام الواحـد منهم من فترة إلى فترة ومن حـال إلى حـال، كما هـو مـوجـود فى الكتب التـى دونها بعض البشر وأضفوا عليهـا صفة القـداسة وفيهـا التضارب والخلاف الكثير» ﴿**والنجم إذا هـوى مـاضل صـاحبكم وماغـوى ومـاينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى**﴾ (النجم ١ـ٤).



٢١ القرآن محفوظ من الله

يقـول الله سبحانـه وتعـالى: ﴿وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطـان فى أمنيتـه فينسخ الله مـا يلقى الشيطـان، ثم يحكم الله آيـاتـه والله عليم حكيم، ليجعل مـايلقى الشيطـان فتنـة للـذين فى قلوبهم مرض والقاسيـة قلوبهم وإن الظالمين لفى شقـاق بعيد، وليعلم الـذين أوتـوا العلم أنـه الحق من ربك فيـؤمنـوا بـه فتخبت لـه قلوبهم وإن الله لهادى الـذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ (الحج ٥٢ ـ ٥٤) .

ذكـر كثير من المفسرين لهذه الآيات روايـات متعـددة فى سبب نزولها، ولكـن المحققين قالـوا: إنها روايات من طـرق كلها مرسلـة، لم تسند إلى



النبى صلى الله عليه وسلم من وجه صحيح.

تقول بعض هذه الروايات: إن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم بمكة، فلما بلغ قوله تعالى: **﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾** ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، فقالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا، فأنزل الله هذه الآيات تنسخ ما ألقاه الشيطان على لسانه من هذه الزيادة، تلك الزيادة التى فشا خبرها حتى وصل المهاجرين إلى الحبشة فعادوا ظنا منهم أن أهل مكة آمنوا، وأنهم سيكونون فى أمن عند عودتهم إلى وطنهم.



ولا شك أن هذا الكلام يرفع العصمة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى التبليغ حيث زاد ما لم يوح الله به، وقد أمره الله بالتبليغ على الوجه الصحيح الذى تلقاه منه قال تعالى: **﴿يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾** (المائدة ٦٧) كما أن فى هذا الكلام ما يفيد تسلط الشيطان على النبى صلى الله عليه وسلم حتى انحرف به من أمانة التبليغ، وكل ذلك مرفوض لأنه يقدح فى عصمة النبى، ويرفع الثقة بالتكاليف الشرعية والقرآن، وهذه الرواية مبنية على أن المراد بالأمنية التلاوة.



ورأى القاضى عياض وغيره صحة الرواية المرسلة، لكنه لم ينسب هذه الزيادة «تلك الغرانيق العلا» إلى النبى صلى الله عليه وسلم بل قال : إن الشيطان لما سمع ذكر اللات والعزى ومناة، قال فى وسط المشركين هذه الزيادة، فظنوا أن النبى هو الذى قالها، فلما سجد النبى والمسلمون معه آخر السورة سجد المشركون، وتعجب المسلمون من المشركين كيف يسجدون، كما تعجب المشركون من المسلمين كيف يسجدون لتعظيم هذه الآلهة وكانوا يذمونها من قبل، فأنزل الله هذه الآيات ينسخ بها ما ألقاه الشيطان أثناء قراءة النبى وفتن به المشركون، ويحكم بها آياته، وليبين أن ما ألقاه الشيطان كان فتنة للذين فى قلوبهم مرض كالمنافقين وضعاف الإيمان، وللقاسية قلوبهم وهم المشركون، أما المؤمنون العالمون بالحق من عند الله فهم ثابتون على يقينهم وإيمانهم.



وتصوير الموضوع بهذه الصورة ينفى تسلط الشيطان على رسول الله وإلقاء الكذب على لسانه، ويحفظ للنبى صلى الله عليه وسلم عصمته وحفظ الله له، وهذا التصوير مبنى أيضا على أن الأمنية هى التلاوة على حد قول الشاعر فى عثمان رضى الله عنه حين قتل وهو يقرأ القرآن:



تمنى كتاب الله أول ليـلة
وآخـرها لاقى حِمامَ المقادر

ورأى المحققون أن قصــة الغرانيق من وضـع الــزنــادقــة ، ولا أصل لها ، ووقـــع كثير من المفسرين تحت تأثيرهــا فحاولـوا تأويل الآيــات حتى لاتمس القصة عصمـة النبى صلى الله عليه وسلم وهنـــاك تفسير مبسط بعيـــد عـن تأويل الأميــة بـالقــراءة، وبعيـــد عن هــذه الــروايــات المدسوسة على النبى صلى الله عليه وسلم.

وخلاصة هذا التفسير: أن الله سبحــانه يقرر أنه مــا أرسل رسولا وما اختار نبيــا من الأنبياء الســابقين الذين جــاءوا بشرع جــديد كإبــراهيم ومـــوسى وعيسى، أو كـــانـــوا مجددين لشرع الـرسل الـــذين جــاءوا من قبلهم كـأنبيــاء بنى إسرائيل، إلا تمنى هــداية قــومه وتــوفيقه فى أداء رســالتــه، ولكن الشيطان يُلقى فى قلـوب القــوم وســاوس وشبهاً تنفــرهم من قبـول ما يتمنــاه ويطلبــه منهم الــرســل والأنبيــاء، وهــو الإيمان والهداية.



غير أن الله سبحــانه إذا أراد هــداية قــوم أزال تلك الـــوســـاوس التى ألقـــاهـــا الشيطـــان فى صــدورهـم، ووفقهم لإدراك الحقيقـــة وإجــابــة النبى فيما طلب، أمــا الذيــن لم يُرد الله هــدايتهم فإنهم يتأثــرون بهذه الــوســاوس ويقفــون من



الدعوة موقف المكذب المعاند، أو موقف الشاك المتربص.

فالنسخ المذكور فى الآية هو محو الوساوس وإزالتها وإبطال كيد الشيطان، وإحكام الآيات هو التوفيق للصواب فى فهمها والإيمان بها، ونزول هذه الآيات يراد به تسلية النبى صلى الله عليه وسلم، وبيان أن كل مصلح لابد أن يلاقى فى طريقه عقبات تكون حاجزا بينه وبين المطلوب، لكن عناية الله إذا لاحظته ذللت هذه العقبات حيث كان رائده المصلحة.

وموقف المكذبين الذى يكاد يكون متحدا فى جميع العصور، كأنه وصية يتناقلها الخلف عن السلف، يشير إليه فى بعض مظاهره قول الله تعالى فى سورة الذاريات: ﴿**كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون، فتول عنهم فما أنت بملوم، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾ (الذاريات ٥٢ ـ ٥٤).

وتبليغ القرآن بالذات يمكن للشيطان أن يتلاعب فيه، بعد أن تعهد الله سبحانه بصيانته، ففى مواجهة الكفار الذين اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنون فى تلقيه الذكر وتبليغه، وعدم الثقة فى كلامه وطلب نزوله عليهم مباشرة من الملائكة ، يقول الله سبحانه :



﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين. إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر ٨ ـ ٩) .

وقد تعهد رب العزة بتحفيظ النبى ما أنزله عليه ليبلغه صحيحا كما أنزل، فقال سبحانه : ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه﴾ (القيامة ١٦ ـ ١٩) .

فقرآن بهذا الشكل وصيانته بهذه القوة يستحيل معها أن يكون للشيطان تسلط على لسان النبى صلى الله عليه وسلم فيزيغ به عن تبليغه على وجهه الصحيح، وعلى المسلمين أن ينتبهوا إلى هذه الشكوك والأباطيل والله معهم بالعون والتأييد.





٢٢ النبى لا يملك تبديل الآيات

جاء فى سورة الإسراء قوله تعالى متحدثا عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿**وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلا، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً**﴾ (الإسراء ٧٣ ـ ٧٥)

معلوم أن القرآن الكريم حمل دعوة الاسلام إلى الناس كافة، وواجه بها أولا قوم محمد صلى الله عليه وسلم الذى نشأ وتربى بينهم وعرفوه وعرفهم، وثبت عجزهم عن الإتيان بمثله بعد أن تحداهم بأقصر سورة منه، وحاولوا تغطية هذا العجز وتمسكهم بدين آبائهم بأقاويل وافتراءات

لتشويه هذه الدعوة الجديدة فى شخص محمد صلى الله عليه وسلم أو فى شخص القرآن الذى نزل عليه، أو الغاية التى يستهدفها من وراء دعوته.

وكان من أبرز ما حمله القرآن من الدعوة توحيد الله سبحانه، وبالتالى إبطال الشرك والوثنية وعبادة الأصنام، التى شوهت بها قريش دعوة جدهم إبراهيم عليه السلام، كما كان من لوازم دعوة التوحيد تسفيه الأحلام والعقول التى هانت وذلّت فسجدت لصنم تصنعه، وتطوف حوله وتدعوه وتتضرع إليه، وهو لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى من الحق شيئا، قال تعالى: ﴿ **أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ (الأعراف ١٩١ ـــ ١٩٢) وقال: ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ (الأعرف ١٧٩)



كانت قريش تسمع هذا الكلام فتستشيط غضبا وتمتلىء غيظا لسب آلهتهم وهى أقدس شىء عندهم، ولإهانة عقولهم وهم الزعماء المرموقون فى الجزيرة كلها، حاولوا إغراء محمد صلى الله عليه وسلم بكل أنواع الإغراء



ليسكت عن دعوته، فكان رده على إغرائهم تلاوة القرآن أمامهم، فتنزل الآيات على قلوبهم كالصواعق، وكان من محاولات الإغراء، وقد وقر فى نفوسهم أن القرآن حق من عند الله لا من عند محمد، وقال قائلهم: إن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول بشر.

كان من محاولاتهم ليستمر فى دعوته أن يغير الآيات التى فيها سبٌ لهم ولآلهتهم، وفيها الوعيد على كفرهم، وكان موقفه منهم ما حكاه القرآن الكريم من قوله سبحانه: ﴿**قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم**»﴾ (يونس ١٥) فالنبى صلى الله عليه وسلم ملتزم ما أمره به ربه من التبليغ الكامل القومى، والله يتولى عصمته من الناس.



ثم لجأوا إلى وسيلة أخرى للمصالحة، بدعوته لعبادة آلهتهم سنة، على أن يعبدوا معبوده سنة، فأنزل الله سبحانه: ﴿**قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون..**﴾ إلى أن قال: ﴿**لكم دينكم ولى دين**﴾ (الكافرون) وقد ثبت الله قلبه ليصمد أمام كل المحاولات، وعلّمه الإجابة السديدة الصامدة فى هذا المجال: ﴿**وإن كذبوك**



فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بـــريئـون ممـا أعمل وأنـا برىء ممـا تعملون» (يونس ٤١) وحـــــذره أن يميـل أدنى ميـل إلى شىء مـن عـروضهم التى تصطـدم مع جـوهر الـدعـوة، مستغلين فى ذلك رقـة قلبه ودمـاثة خلقـه وحبه لمصلحة قومه: ﴿**ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله**﴾ (الأحزاب ٤٨)

وفى إحـدى المرات، كما يـذكـر السيـوطى فى أسباب النزول بإسناد جيد عن ابن عباس رضى الله عنهما، خـرج أميـة بن خلـف وأبـو جهل بن هشام ورجال من قـريش فأتوا رسول الله صلى الله عليـه وسلم فقـالوا: يـا محمـد تعـال تمسّح آلهتنا ونـدخل معك فى دينك، وكـان يحب إسلام قـومـه، فرقّ لهم، فـأنزل الله سبحـانـه: ﴿**وإن كادوا ليفتنونك عـن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره، وإذا لا تخذوك خليلا**﴾ (الاسراء ٧٣) وبين الله فى الآيات انه ثبـت قلبه الذى يحب لهم أن يـؤمنوا، ولـولا ذلك لمال إلى فتنتهم ميـلا قليلا، ولـوحدث ذلك لعاقبه الله أشـد العقاب ولا ينجيـه منه نصرهم لـه، فالله غـالب قـاهر فـوق عباده.



فـالآيـة تنفى عن النبى صلى الله عليـه وسلم الميل القليل إلى اغـــرائهـم، بفضل رعـــايـــة الله لـه،فالأولى تنفى عنـه الميل كله، ولفظ «كـاد» فى



الاثبات يفيد النفى، فلم يحصل ركون منه ولا ميل إليهم، صحيح أنه يود اسلامهم ولكن ليس بالوسيلة التى تهدم أصل الدعوة، فلا يتفق توحيد وشرك، ولا يتفق إيمان وكفر، ولو كانت هناك وسيلة ظاهرية قد تؤدى إلى إيمانهم، وليس فيها ما يمس عقيدة النبى صلى الله عليه وسلم، ولم يسمح بها الله سبحانه له لفعلها، فقد جاء عن سعيد بن جبير فى سبب نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستلم الحجر الأسود، فقالوا: لا ندعك تستلم حتى تستلم آلهتنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفسه: وما علىّ لو فعلت والله يعلم منى خلافه، فنزلت الآية تحذره.



ومع عدم الوثوق بهذا السبب فإن الخواطر والعمليات النفسية كثيرة منوعة، والهواجس وأحاديث النفس وما لا ينعقد عليه العزم تجاوز الله عن عباده فيه، لأنه من لوازم النفس البشرية، وكم من أمان وآمال يحدث الانسان بها نفسه قد يكون المطاف النهائى لها شريفا أو غير شريف، فلو حاسبنا الله عليه لكان هو الحرج الذى نفاه عن تكاليفه، والموفق من وقفت به تلك الخواطر عند مرحلة يكون بعدها التصميم والتنفيذ إن كان ما يفكر فيه غير مشروع، وعليه يحمل دعاء النبى صلى الله عليه وسلم: ولا تكلنى إلى نفسى



طرفة عين. (الأذكار) للنووى عن ابن السنى.

وبعد أن علمنا براءة النبى صلى الله عليه وسلم فى موقفه من المعارضة وإغراءاتها مما يخدش عصمته، نود أن نؤكد أن المحاولات لصد الناس عن الحق كثيرة، ولها أساليبها المتعددة، وتنازل الدعاة، ولو قليلا، عن واجبهم فى الدعوة، لقاء مناصرة المبطلين لهم فى بعض المجالات، يخشى منه التنازل الكلى، فمعظم النار من مستصغر الشرر، والحق كل لا يتجزأ، والفتنة دائما تكون بالأقل البسيط، كما نؤكد أن غضب الله لا يفلت منه من انحرف عن الطريق، حتى لو كان أحب الناس إليه وأقربهم منه، فقد رأينا تهديده الشديد لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن خالف أمره ولو قليلا، وقد قال فى موضع آخر: **﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾** (الحاقة ٤٤ ـ ٤٧).





٢٣ من اجتهاد الرسول

فى غزوة تبوك التى يطلق عليها اسم غزوة العسرة لوقوعها فى وقت قل فيه الظهر والزاد واشتد الحر، جاء قوم من عامة المسلمين يستأذنون النبى صلى الله عليه وسلم فى عدم المشاركة بالخروج إلى هذه الغزوة لعلل تقدموا بها ظهر أن أكثرها يدل على عدم رسوخ الإيمان فى قلوبهم، وتبين بعد أن كثيرا من المعتذرين منافقون سجلت سورة براءة أنواعا منهم ومن أعذارهم الواهية. ولأن النبى صلى الله عليه وسلم يعامل الناس بما ظهر منهم ويكل سرائرهم إلى الله، كان يأذن لهؤلاء بالقعود عن الغزو، ولم يشأ أن يرفض عذرا ولا يضغط على أحد بالخروج، فإن الجهاد قربة إلى الله إن لم تؤد



طواعيــة ضاع ثوابها، والمجاهــد إن لم تكن عنده الرغبة فإن أداءه فى المعركة لا يكون على المستوى المطلوب، فنبه الله نبيه إلى أن طمع الناس فى خلقه الكــريم سيغــرى الكثير منهــم على التقــاعــد عن الأمور الصعبــة الشاقــة، التى يجب أن تؤدى فى بــدء بنــاء المجتمع الجديد وحمايتــه من الأعــداء المتربصين، وأرشــده إلى تقصى أسبــاب اعتــذار هــؤلاء، فإن وجــد أعذارهــم مقبولــة قبلهــا وإلا رفضها، وأنزل فى ذلك قــوله سبحانه: ﴿«**عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين**﴾ (التوبة ٤٣).



وهو عتاب رقيق فى غايــة الرقة واللطف حيث قدم فيــه العفو، فهــو عليه الصــلاة والسلام لم يــرتكب معصيــة، ولكن كــان الأولى أن يتمهل، والتوجيــه إلى عمل الأولى تربية وتخطيط للــدعوة وممارســة الحكم، ليس فيهــا ما يخل بــالعصمة الــواجبة لــلأنبيــاء، والآية يقــول معنــاها: هــلا تــركتهم لما استــأذنــوك، فلم تأذن لأحــد منهم فى القعود، لتعلم الصادق منهم فى إظهار طاعتك من الكــاذب، فإنهم كــانــوا مصرين على القعــود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه، ولهذا أخبر سبحانه أنه لا يستــأذنه فى القعود عــن الغزو أحد يــؤمن بالله ورســوله حقــا، فقال: ﴿**لا يستأذنك الذين يــؤمنــون بــالله واليــوم الآخــر أن يجاهــدوا**



بأمـــوالهم وأنفسهم والله عليم بـــا لمتقين﴾ (التوبة ٤٤).

وذلك لأنهم يـرون الجهاد قـربة، ولما نـدبهم إليـه بادروا وامتثلـوا ثم قـال: **﴿إنما يستأذنك الذين لا يـؤمنون بالله واليوم الآخـر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون﴾**. (التوبة ٤٥)

وبهذا ظهـر أن العتـاب الرقيق فى هـذه الآيـة لا يستلزم معصية تخدش العصمة.

وهناك آية أخرى من هـذا النوع تقريبا، وهى قوله سبحـانه: **﴿يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مــرضـاة أزواجك والله غفـــور رحيم﴾** (التحريم١).



وقيل فى سبب نزول هـذه الآية أن النبى صلى الله عليه وسلم كـانت له أمـة يطؤها فلم تـزل به عائشة وحفصة حتـى حرمها، كما رواه النسائى عن أنس، وقـال ابن جـريـر: انه عليـه الصـلاة والسلام بـاشرها فى بيت بعض نسـائه فغضبت فجعلها عليه حرامـا، فقالت له: كيف يحرم عليك الحلال، فحلف لها بالله لا يصيبها، فنـزلت الآية. وجـــاء فى بعض الأقـــوال أن ذلك كـــان فى بيت حفصـــة، وأمرهـا ألا تذكـر ذلك لأحد، فـذكرتـه لعائشة فأظهره الله عليه، كما تقول الآيات التالية لهذه الآيـة، وصح أن النبى صلى الله عليـه وسلم كفر عن يمينه وأصاب جاريته.

هــذا رأى فى سبب النــزول، وهناك رأى آخــر يــرجح هــذا الــرأى لرجحــان روايتــه، وهــو أن التحريم كان فى شأن العسل كما فى البخارى.

فعن عائشة رضــى الله عنها، كان النبى صلى الله عليــه وسلم يشرب عســلا عنــد زينب بنت جحش، ويمكث عنــدها، فتواطأت هــى وحفصة على أيتهما دخل فلتقل له: أكلت مغــافير، إنى أجد منك ريح مغافير، وهو طعام رائحته كريهة، وهو صلى الله عليــه وسلم كــان يتنــزه عنهــا لصلتــه بالناس ولنزول الملائكة عليه، فلما دخل عندهما قــالت كل منهما ذلك لــه، فقــال: لا، يعنى لم آكل مغافير،ولكنى كنت أشرب عســلا عند زينب، فلن أعود له، وقد حلفت، لا تخبرى بــذلك أحدا، وجاء فى روايــة أخرى للبخــارى أن شرب العسل كــان عنــد حفصة فتــواطأت عائشــة وسودة وصفيــة على قــول ذلك، ولما عــــاد إلى حفصــة وأرادت أن تسقيه قال لا حاجة لى فيه.



وقد أطلعــه الله سبحانه على هــذا الاتفاق بين النسوة الــذى أملاه عليهن حبهــن الشديــد له، والغيرة الطبيعيــة التى تـــلازم الضرائر، ولعلم زوجاته صلى الله عليــه وسلم بكرم خلقه وحسن عشرته، كان لهن بعض التدلل الذى لا يقصدن به إيــذاءه عليه الصــلاة والسـلام، فإن ذلــك أمر معروف الحرمــة، ولكن يقصدن به إظهــار شدة



حبهن لـه، وقـد تحدث معهن فى ذلك ولم يشأ أن يستقصى فى عتـاب مـن استأمنهـا على السر، فاكتفى ببعض الكلام عن البعض الآخر الذى لم يرد دليل صحيـح على تعيينه، وقد تأكـد علمهن بأن الله سبحانـه مع رسولـه بالحفظ والرعـاية، ونزل تهديدهن بعدم العودة إلى ذلك والتوبة مما حدث منهـن، فإن جبهة النساء مهما أحكمـت ما صنعت، فإن ذلـك كلـه لا يقف أمـام الحصن القوى الذى أحيط بـه النبى صلى الله عليه وسلم من الله والملائكة والصالحين.



نعود إلى قولـه تعالى: ﴿**لم تحرم ما أحل الله لك**﴾ فنـرى أن ذلك عتاب مـن الله سبحانـه، ألا يكون فى هذه الـذروة من حسـن معاشرة الأزواج أو بالـدرجة التى تجعلـه يحاول إدخال السرور علي قلـوبهن، ولو كـان ذلك على حساب نفسـه، بتحريـم ما أحله الله لـه، فإن قدره عنـد الله أعظم منهن، فهو فـردٌ علمٌ خاتم الأنبيـاء لا يوجـد له مثيل، أما زوجـاته فمن اليسير أن يبدلـه أزواجا خيرا منهن مسلمات مـؤمنات قـانتـات تائبـات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا.

وامتنـاع الانسـان عن شىء حـلال فى سبيل إرضـاء غيره وبخـاصة من تـربطـه بهن روابط وثيقة ، وليس فيـه شائبة عصيان للـه سبحانه، فقـد امتنع صلى اللـه عليـه وسلم عن أمـور هى



مباحة لغيره ، كأكل البصل والثوم ، لأن وضعه ليس كوضعهم ، وقد امتنع من قبله إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام عن لحوم الإبل وألبانها ـ كما أسلفنا ـ هو أمر يخصه ، ولم يوجه الله لوما ولا عتابا ، ولكن موقفه سبحانه من حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم موقف يدل على شدة حبه ، ولذلك بادر بتشريع يتيح له التحلل مما أخذه على نفسه ، وهو الكفارة بقوله:

﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم﴾ (التحريم ٢)

ما أعظم قدرك عند الله يا رسول الله ، أليس فى ذلك مايقوى إيماننا بأن من تولاه الله فلن يغلب، ومن كان مع الله فالله معه يحفظه ويرعاه.





٢٤ استغفار الرسول

وردت آيات فى القرآن الكريم فى ظاهرها ثبوت الذنب والوزر والضلال إلى النبى صلى الله عليه وسلم، كقوله تعالى: ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات**﴾ وكقوله: ﴿**إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾ (الفتح ١) وكقوله: ﴿**ووجدك ضالا فهدى**﴾ (الضحى) وكقوله: ﴿**ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك**﴾ (الشرح ٢) وكيف يتفق ما نسب إليه صلى الله عليه وسلم من ذلك مع ما يجب للأنبياء من عصمة؟

والجواب : أنه قد تقرر بالأدلة القوية عصمة الأنبياء عن كبائر الذنوب وعن صغائرها التى



فيها خسة على ما ذهب إليه أكثر العلماء، وكل ما يخالف ذلك من نصوص يجب صرفه عن ظاهره، وقد قال العلماء فى أمر الله لنبيه بالاستغفار لذنبه وللمؤمنين: إن المراد استغفره إن وقع منك ذنب، أو استغفره ليعصمك من الذنوب، أو احذر ما يحتاج إلى استغفار ودم على ما أنت عليه من التوحيد والاستقامة، أو المراد بالخطاب أمته، ليكون لهم قدوة.

وبهذه التفسيرات لا ينسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم ذنب، وامتثالا لأمر الله كان كثيرا ما يدعوه بالمغفرة، على أن الأنبياء، لعلو مكانتهم، قد يَعُدُّون خلاف الأولى بالنسبة إليهم ذنبا كبيرا يستوجب الاستغفار، وقد يقع ذلك منهم عمدا أو سهوا، وعليه يحمل ما ثبت فى الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم :«اللهم اغفر لى ذنبى كله، دِقّه وجِلّه، وأوله وآخره، وعلانيته وسره» (رواه مسلم) وقوله: «اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى، اللهم اغفر لى هزلى وجدّى وخطئى وعمدى وكل ذلك عندى» (البخارى ومسلم) وقوله: «يأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإنى أتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة» (رواه البخارى).



وفى آية الفتح وهو، على الراجح الحديبية، التى غفر الله فيها للنبى صلى الله عليه وسلم



مـا تقدم من ذنبـه ومـا تأخر، قـال العلماء : إن النبى صلى الله عليه وسلم سُر جـداً عندما نزلت عليه هـذه الآية لتوفيق الله لـه فى صلح الحديبية لما يترتب عليـــه مـن الآثـــار العظيمـــة، والمراد بالمغفرة هنا لازمها وهـو سعادة الدنيا والآخرة، فإن من ستره الله وتجاوز عن مـؤاخذتـه، يقبله ويرفع درجاته وييسر لـه أمره، والشخص الذى استقام سلـوكه والتـزم التقوى حتى صـارت له كالسجية والخلق، يُؤْمَنُ عليه من المخالفة غالبا، ومن كـان كذلك يـوفقه اللـه فى مستقبل حياتـه، ليكون ذلك امتدادا لما سبق من توفيق.



ولعل مما يـوضح ذلك، قول النبـى صلى الله عليــه وسلم لعثمان رضى اللـــه عنـــه لما تبرع بسخاء فى غـزوة تبوك: غفر الله لك يـا عثمان ما تقدم من ذنبك وما تأخـر، ما ضر عثمان ما يفعل بعد هـذا اليوم. (رواه الترمذى وغيره) وقـوله فى حق أهل بدر:

لعل اللـه قـد اطلـع على أهل بـدر فقـال لهم اعملوا مـا شئتم فقد غفـرت لكم (رواه البخارى ومسلم)

والمراد أن اللـــه سيــوفقهم للصـــالحات فى مستقبل حيـاتهم، لقاء ما قـدموا مـن أعمال تدل على رسوخ الايمان فى نفـوسهم، وتعشق الطـاعة تعشقا يجعلها كطبع وسجية.



وهذا الإنعام السامى من الله سبحانه على نبيه الكريم يستوجب منه صلى الله عليه وسلم أن يشكره عليه ويزيد فى طاعته وتقربه إلى ربه، ويحس، كما يحس كل إنسان عاقل واع حكيم، أن المكافآت التى تمنح للانسان ليست نهاية المرحلة وجزاء أخيرا على السلوك، بل هى لزيادة النشاط والاقبال على العمل الصالح، فهى، على حد التعبير الحديث، بمثابة المكافأة التشجيعية التى تبعث على زيادة الانتاج والعمل، وكما يقولون: الحفاظ على المكاسب أصعب من الحصول عليها، ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم، انطلاقا من هذا الشعور، يقوم الليل حتى تتورم قدماه، ويرد على من يسأله عن سر هذا الارهاق وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أى ضمن له التوفيق والقبول، فيقول: «أفلا أكون عبدا شكورا» (رواه البخارى ومسلم).



وأما قول الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿**ووجدك ضالا فهدى**﴾ فلا يدل على أنه كان ضالا بالمعنى الذى يتبادر إلى بعض الأذهان، فلم يكن عليه الصلاة والسلام حائدا عن الطريق المستقيم مائلا عن الحق فهداه الله إليه، ذلك أن الضلال أنواع، ضلال الشرك وضلال الهوى وضلال الطريق، والدليل العقلى



مع إجماع أهل الملل على أن الشرك مستحيل على الأنبياء قبل البعثة وبعدها، فلا يصح أن يكون مقصودا من الآية، والدليل العقلى قام أيضا على استحالة صدور الكبائر من الأنبياء، فلا تصح إرادة ذلك من الآية، بقى النوع الثالث من الضلال وهو ضلال الطريق، سواء منه المادى أو المعنوى، وهو الذى يجب حمل الآية عليه، فقد كان صلى الله عليه وسلم فى نشأته بين قومه مطبوعا على التمسك بالكمالات والبعد عن كل ما يشعر بالخسة والنقص فى الفهم والسلوك، وكانت نفسه تتوق إلى السعى دائما لرفع شأن قومه بما ينقيهم مما ارتكسوا فيه من شرك وسلوك غير مستقيم، ومازال يفكر فى الاهتداء إلى طريق يحقق له ما يريد، فلم يجد فى الأديان السابقة ما يشفى غلته، حتى طلعت عليه شمس النبوة ونزل عليه جبريل يبين له الطريق الذى يسلكه لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وبهذا هداه الله من حيرته، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾.



وقوله تعالى: ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ لا يراد من الوزر الذنب، كما هو فى بعض إطلاقاته، حتى يقال: إن النبى صلى الله عليه وسلم ارتكب ذنبا عافاه الله منه، فذلك أمر يتنافى مع العصمة الثابتة بالدليل العقلى، والحق أن الرسول عليه



الصلاة والسلام كان فى مبدأ أمره يحس بشدة الوحى حين يقابله جبريل نظرا لعدم العهد به من قبل، حتى كان يذهب إلى أهله ويطلب منهم أن يزملوه ويدثروه، كما كان نشر الدعوة متعسرا عليه أول الأمر لعدم عهد قومه بالدين الجديد، فوضع الله عنه هذا الحمل وخففه، حتى أنس بالملك وألف اللقاء به، وحتى يسر له أمر الدعوة، على ما يفيده قوله تعالى بعد ذلك: **﴿فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا﴾**

(الشرح ٥ ـ ٦)

فالراحة تعقب العناء والتعب، ومن صدق مع الله وأخلص تكفل برفع العراقيل من طريقه، وخفف عليه وطأة المعارضة التى هى شأن كل دعوة جديدة، حتى نصره الله نصرا مؤزرا بعد طول جهاد، ورفع ذكره بين العالمين.

بهذا الفهم للآيات يتفق ما جاء فيها مع عصمة الأنبياء، وهى كالمتشابه الذى يجب رده إلى المحكم ليفسر على ضوئه، بعيدا عن الزيغ والالحاد فيما أنزل الله وقرره من الشرف والفضل للمصطفين الأخيار.





٢٥ تعدد زوجات الرسول

روى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كنت أغار من اللائى وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول: أما تستحى المرأة أن تهب نفسها، فلما أنزل الله **﴿ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء﴾** قلت: ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك»..

من هذا النص ومن نصوص أخرى يعيب المغرضون على النبى صلى الله عليه وسلم بأنه رجل شهوانى، جمع فى عصمته أكثر من أربع، وهو العدد المشروع من الزوجات، وربما كان يطوف عليهن فى ليلة واحدة، وروى عنه أنه قال: «حبب إلىّ من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة



عينى فى الصلاة» (رواه النسائى والحاكم وهو حسن)

ونقول : إن آية تحديد الزوجات بأربع نزلت، على ما قاله المحققون، فى السنة الثامنة من الهجرة، وكان ذلك بعد بناء النبى صلى الله عليه وسلم بزوجاته جميعا، وبعد أن أقره الله على ما جمع منهن، وكرمهن أخيرا بأنه لا يحل له أحد من النساء بعدهن، تقديرا لموقفهن النبيل فى اختيار أن يكن له زوجات راضيات بشرف الانتساب إليه، بعد أن أمره الله أن يخيرهن بين تطليقهن وإمساكهن، فهذا العدد الذى فى عصمته مشروع من الله سبحانه، سواء أكان ذلك على وجه الخصوصية التى يميز بها الأنبياء على سائر الناس، أو على أن التحديد بأربع لا يتناولهن لإقرار الله له ذلك.



والشهوانية التى يطلقها المغرضون كالدخان يريدون به تلويث الجو الصافى للنبوة، إن أريد بها أنه رجل فيه شهوة كبقية الرجال، وليس حصورا ممنوعا بطبعه عن النساء كبعض الأنبياء، فذلك وصف تكريم له لأنه كامل الرجولة، وإن أريد بها أنه زاد فى هذه القوة على ما يعتاده الناس، فإن ذلك يكون عيبا ومطعنا لو حدث أحد هذين الأمرين، أولهما: الفوضى فى معاملة زوجاته، وعدم العدل بينهن فى المعاشرة



والنفقـة، وذلك ما لم يحدث من النبى صلى اللـه عليـه وسلم قـط، فكـان فى معـاشرتهن أكمل النماذج فهـو القائل: «خيركم خيركـم لأهله وأنـا خيركم لأهلى» (رواه ابن حيان فى صحيحه).

وكـان يقسم بينهن بالسـويـة تفضلا منـه عليهن وتحريا للعـدل، ودليل كمال عشرته معهن رضـاؤهن به عنـد التخيير، وحبـه للنساء كـان قلبيـا لضعفهن وقـد أوصى بحسن عشرتهن، وثانيهما: تكـون الشهوة الـزائدة عيبا لـو أثرت على الـواجبات الأخـرى، وهـذا هو شأن الـرجل المشغوف بالنسـاء.



لكن النبى صلى اللـه عليه وسلم كـان فى أداء واجب الـدعـوة والجهـاد والأنشطـة الأخـرى الأسـوة الحسنـه للنـاس، حتى فى قيـام الليل ساعات طـويلة، وحتى فى كثرة صيامـه وقناعته بالقليل من الطعام، وليس هذا شأن الشهوانى فى عرف الناس.

والنبى صلى اللـه عليه وسلم مع رقـة حالـه ومع كثـرة واجباتـه كانت فيـه قوة تحدّث عنهـا الصحابـة كما جاء فى حـديث أنس بأنها تساوى ثلاثين رجـلا كما جاء فى روايـة البخارى. واللـه ذو الفضل العظيم، يمن بفضله على من يشاء من عباده.

وقد يكون طـوافه عليهن فى الليلة خـاليا مما

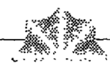


يكـون بين الـرجل وزوجتـه، وذلك لمعـرفـة مـا يلزمهن، وإدخال السرور على قلـوبهن، وما يقال من إنه استعان على ذلك بأطعمة أو أدوية خاصة فباطل مـوضـوع ومفترى عليه، وقولـه صلى الله عليــه وسلم فى الحديث: «حبب إلىّ من دنيــاكم الطيب والنســاء، وجعلت قـرة عينى فى الصــلاة» يدل بوضـوح على أن أمتع وأحسن ساعات حياته هى التى يكــون فيهــا مع اللـــه فى الصـــلاة، والشـهوانى المغرم بالنســاء لا يرى فى الدنيا أمتع من اللهو بهن، وحاشا للـه أن يكون عليه الصلاة والسلام من هؤلاء.



إن النبى صلى اللـه عليـه وسلـم الـذى جـاء بـالشريعـة الـوسط المعتـدلـة التى لا تـرضى الانحياز فى أداء الواجبات للـدين والدنيا والروح والبــدن، كـان هـــو خير من يمثلهـــا ويحسن تطبيقها، حتــى قال اللـه فيه: ﴿**لقد كـان لكم فى رسـول اللـه أسـوة حسنـة**﴾ (الأحـزاب ٢١) وحتى قـال هـو عن نفسه: «إنى لأخشـاكم للـه وأتقاكـم له، ولكنى أصـوم وأفطر وأقـوم وأرقد وأتــزوج النســاء، فمن رغب عـن سنتى فليس منى» (رواه البخارى ومسلم).

لقد كان النبى صلى الله عليـه وسلم فى شبابه عفيفـا مع وجـاهتـــه ويسر الاتصــال بـه، وهل الشهوانى يكون عفيفا فى هـذه السن المبكرة، لقد



طلبته خديجة رضى الله عنها للزواج، ولم يتقدم هو إليهـا، مع انه عمل طـويلا، وهو قـريب منها ليس بينهما حجاب، فكيـف يصبر الشـهوانى على نفســه والفـرصــة مواتيـة أن يبـادر هـو بطلب الزواج منها.

لو كان النبى صلى الله عليـه وسلم شـهوانيا، وقـد ورث مـال خديجة، لكـان أول تفكيره بعـد مـوتها هو التمتع بـالأبكار كما يشـاء، ومع ذلك لم يتـزوج بعدهـا بكرا غير عـائشة رضى اللـه عنها.



والـرسـول عليـه الصـلاة والسـلام آلى من زوجاتــه شـهرا، أى حلف ألا يقـربهن، واعتزلهن جميعـا هـذه المدة، وهـل يصبر الشـهـوانى على نسائه كلهن هذه المدة، لقد خيرهن بين المقام معه على رقة حـاله وبين امتـاعهن وتطليقهن، وكيف يعمـد الشـهوانى إلى هـذه المغـامرة ولـو اخترن فـراقـه لا يستطيع أن يحصل على غيرهن، لأنـه يعـرف حينئذ أنـه غير قـادر على توفير مطـالب الزواج.

لـو كان شـهـوانيا لـوفر لنفســه ألذ الطعـام والشراب، وتمتع بـأكبر قسط من الـــراحــــة، والمعروف عنــه أنه كان فى طعـامه وشرابه قـانعا بما وجـد، وقد ينـوى الصيام إذا لم يجد فى بيتـه ما يتنـاوله من الطعـام أول النهار، وكـان يقوم



الليل حتى تتورم قدماه، إلى جانب نشاطه اليومى فى تبليغ الوحى والفصل بين الناس والجهاد فى سبيل الله، وتصريف الأمور كرسول وكرئيس دولة ناشئة لها تبعاتها الجسام.

لو كان النبى صلى الله عليه وسلم شهوانيا ما ردّ عرض زواج جاءه ميسرا عن طريق الواهبات أنفسهن إليه، لكنه لم يقبل هذه العروض وكان رده لطيفا فى ذلك، ولو كان شهوانيا لاستكثر كما استكثر غيره من السرارى والإماء، ولكن الثابت أنه لم يتسرّ بأكثر من أربع كما قال المحققون.



وبعد أن تبرأت ساحة النبى صلى الله عليه وسلم مما يعاب به غيره من الناس، لم يكن حرا كامل الحرية فى التزوج بمن يشاء، فقد روى النيسابوريّ عن أبى سعيد الخدرى قوله عليه الصلاة والسلام: «ما تزوجت شيئا من نسائي، ولا زوجت شيئا من بناتى إلا بوحى جاءنى به جبريل عن ربى عز وجل». صلى الله وسلم عليك يا أكمل الرجال ويا خاتم الأنبياء.



٢٦ إبطال حكم التبنى

من زوجات النبى صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش، وهى بنت عمته أميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم، خطبها أولا لمولاه زيد بن حارثة الذى أعتقه وتبناه على عادة الجاهلية، وكانوا يدعونه زيد بن محمد، حتى أبطل الله حكم التبنى بقوله سبحانه: ﴿**ادعوهم لآبائهم**﴾ (الأحزاب ٥) وقال الله سبحانه: ﴿**ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾ (الأحزاب ٤٠) لما خطبها النبى أولا ظنت انه يخطبها لنفسه، ولما تبين انه يخطبها لزيد أبت واستنكفت وقالت : أنا خير منه حسبا، فأنزل الله سبحانه ـ كما رواه الطبرانى بسند صحيح ـ قوله : ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا**



قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلال مبينا﴾ (الأحزاب ٣٦) فرضيت وسلمت ومكثت عند زيد مدة، وألقى الله من قلبه كراهيتها، وجاء يشكو امرها الى النبى صلى الله عليه وسلم فكان يأمره بتقوى الله فى معاملتها وبإمساكها وعدم تطليقها، وانتهى الأمر الى الطلاق فتزوجها النبى صلى الله عليه وسلم بعد انتهاء عدتها، ونزل فى ذلك قوله سبحانه :

﴿و إذ تقول للذى أنعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج ادعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا﴾ (الأحزاب ٣٧) .



وذكر بعض الكاتبين فى تفسير هذه الآية امورا تعيد لنا فرية اهل الكتاب على داود عليه السلام، الذى اعجب بزوجة قائده فدبر له حيلة حتى قتل وتزوجها من بعده، وترتب على تفسير هؤلاء للآية نسبة أشياء خطيرة نربأ بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتورط فيها وهو المعصوم المعروف بكماله قبل النبوة وبعدها ، ويكفى فى ذلك قوله تعالى: **﴿و إنك لعلى**



خلق عظيم﴾. (القلم ٤) .

ذكـر بعض المفسرين ان النبى ذهب الى بيت زيد وكان متـزوجا من زينب، فلم يجده ولما نظر الى زينب اعجب بفرط جمالها فقـال :سبحان الله خالق النور تبـارك الله احسن الخالقين، وبعد أن خرج جاء زيد فأخبرته زينب بما حدث فقال لها: لعلك وقعت فى قلب رســول الله فهل لك ان اطلقك حتى يتزوج منك؟ فقالت: اخشى ان تطلقنى ولا يتـزوجنى، فجـاء زيــد الى النبى صلى الله عليــه وسلم وقال لــه: اتريد ان أطلق زينب ؟ فقـال له: امسك عليك زوجك واتق الله، قــال هـذا بحسب الظاهر، وفى الواقع كان يود الطلاق ليتزوجها.



هذا الكلام يتضمن امـورا خطيرة، ومنها انه اظهر خـلاف ما اضمره، فأنــه كان يود طـلاقها ومع ذلك يقول له امسك عليك زوجك .

ومنهـا انــه ارتكب اثـم الحسـد ، حيث تمنى زوال نعمة غيره، وهى قطع الصلـة التى بين زيد وزوجه ، وهذه امـور تقدح فى عصمة النبى صلى الله عليـــه وسلم، فهـل يجوز أن يخضع اى نبى لسلطان الشهوة ويكـون منافقا يظهرخـلاف ما يبطن ، ويحســد النــاس على مـــا آتــاهم لــه من فضله؟ ! ان شيئا من ذلك لا يجوز، وهو فى عامة النـــــاس نقص أى نقــص، فكيف فى رســل الله وصفوته من عباده .



يجب طرح هذه التفسيرات والتعويل على معنى الآية وسبب نزولها على الوجه الصحيح، لقد تبنى النبى صلى الله عليه وسلم زيدا، وزوجه من زينب ليقضى على الأعراف العربية القديمة فى الكفاءة فى الزواج المبنية على الحسب والنسب ، وكانت زينب تفخر عليه بشرفها وكان هو يشكوها الى النبى صلى الله عليه وسلم، وبعد الشكوى اوحى الله إلى نبيه ان زيدا سيطلقها وستكون زوجا له ، والحكمة فى ذلك ان يبين للناس ان التبنى ليس كالبنوة الحقيقية، فيجوز للانسان أن يتزوج مطلقة من تبناه ، بينما لا يجوز له ان يتزوج مطلقة ابنه من صلبه.



وبعد هذا الوحى كان زيد يأتى الرسول ويشكو تعاليها عليه، ويخبره أنه يريد تطليقها لكن الرسول عليه الصلاة والسلام كان ينصحه بإمساكها بالمعروف، مع أن الوحى نزل عليه بأن زيدا سيطلقها وأنه سيتزوج منها،

كان الرسول عليه الصلاة والسلام فى حل أن يخبر بما أوحى الله إليه، لكنه رأى انه لو أظهر ذلك للناس لقالوا : انه تزوج مطلقة من تبناه، فنزلت الآية عتابا للنبى صلى الله عليه وسلم تقول : ﴿ **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه**﴾ بتوفيقه للإسلام و﴿ **أنعمت عليه**﴾ بالحرية والتبنى والرعاية ، تقول له : ﴿**أمسك عليك**



زوجك﴾ ولا تطلقها **﴿واتق الله﴾** فى امرها : **﴿وتخفى فى نفسك ما الله مبديه﴾** أى تستر على الناس أمرا يظهره الله وهو طلاقها من زيد وتزوجك بها ، وتخاف من اعتراضهم عليك بقولهم : إنك تزوجت زوجة ابنك، والحال أن الله أحق بالخشية والخوف، وهذا محط العتاب من الله لنبيه ، كأنه يقول له: كان الأولى بك إما أن تسكت عند سماع شكوى زيد منها، وإما أن تظهر الأمر للناس، فإن طلاق زينب وتزوجك بها لحكمة عظيمة الشأن بينها قوله تعالى : **﴿فلما قضى زيد منها وطرا﴾** أى حاجة **﴿ زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج ادعيائهم إذا قضوا منهن وطرا﴾** أى إذا انقضت عدتهن بعد الطلاق . وخلاف الأولى لا يقدح فى عصمة الأنبياء .



ومن عجيب هذه القصة أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل الى زينب بعد انقضاء عدتها ، أرسل زيدا زوجها الأول ليخطبها له، فذهب فى أدب وحياء يبلغها رغبة النبى صلى الله عليه وسلم رسلم فقالت : ما كنت لأحدث شيئا حتى أؤامر ربى عز وجل، فدعت ربها فأنزل الله هذه الآية ، فدخل عليها النبى بغير اذن لتزويج الله له منها بقوله : **﴿فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ﴾** كما رواه مسلم.



لقد كـانت تجربة النبى فى ابطـال حكم التبنى فى شخصين يمكنه أن يؤثر عليهما، بنت عمته وابنه بـالتبنى ، ورضاؤهما بهذه التجـربـة القاسيـة كـانت مكافأتـه زواج النبى بها، وكان يمكنـه أن يتزوجهـا مبدئيـا قبل أن يـزوجها زيـدا، فزواج النبى منهـا رد اعتبار لها ومكـافأة على رضائهـا بحكم الله فى زواجهـا من مـولى وهى الشريفـة الأصيلة، وكانت تفخـر على ازواج النبى وتقول : زوجن أبـاؤكن وزوجنى الله من فـوق سبع سموات ، كما صححه الترمذى .



ذلك وجـه الحكمـة فى هـذه الحادثـة ، وهى ترتيب من الله سبحانـه ليس فيه ما يخل بعصمة النبى صلى الله عليه وسلم .



٢٧ المشاورة فى شأن الأسرى

أول لقاء جـدى مسلح بين المسلمين والمشركين فى بدر صبيحـة يوم الجمعـة السابـع عشر من شهر رمضـان للسنة الثـانيـة من الهجـرة، نصر الله المسلمين مع قلتهم على الكـافـرين مع كثـرتهم. وكـانت حصيلة هـذه المعـركة استشهـاد أربعة عشر مسلما، وقتـل سبعين مـن المشركين وأسر سبعين، الى جـانب ما غنمـه المسلمون من عتـاد وأموال .

كانت هذه المعركة سببا فى تشريع جديد حول الغنائم والأسرى، فقـد كانـت الغنائم فى الشرائع القديمة محرمة على المقاتلين وحلها خاص بالأمة الاسـلاميـة كما صرح بـه النبى صلى الله عليـه وسلم فى الحديث الصحيح، وبعد انتهـاء المعركة



امر رسول الله بجمع الغنائم ، ولما كانت هذه أول غنيمة كبيرة اختلف المسلمون فيمن هو أحق بها، وانتهي الأمر الى نزول قوله تعالى : ﴿**يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين**﴾ (الأنفال ١)

وعند عودة النبى صلى الله عليه وسلم من بدر الى المدينة قسم الفضل الذى افاء الله على المسلمين، بعد مجاوزته مضيق الصفراء، واقتاد معه الأسرى الذين قتل بعضهم في الطريق كالنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط، وما بقى منهم فرقهم على اصحابه وقال : استوصوا بهم خيرا، ثم بعثت قريش في فدائهم ، فلم يشأ النبى صلى الله عليه وسلم ان يستقل بالرأى في هذه المسألة التى ستكون بداية لكثير من امثالها في حياة الجهاد الاسلامى ، وعرضها للشورى، وكان من اخلص مستشاريه ابو بكر الصديق وعمر رضى الله عنهما، وابو بكر معروف بحكمته ورويته ورحمته وشفقته ، كما أن عمر معروف بشدته في الحق وصلابته في معاملة الأعداء، فقال ابو بكر رضى الله عنه : يارسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد اعطاك الله الظفر والنصر عليهم، فأرى ان تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم، كان رأى ابى بكر يستهدف غرضين،





أولهما: الاستعانة بالفداء والتقوى به على الكفار، والمسلمون فى حاجة ماسة الى الدعم المالى بعد ان تركوا فى مكة اموالهم، وشاركوا أهل المدينة فى أموالهم التى سخت بها نفوسهم عليهم كأخوة متحابين فى الله، وثانيهما : الأمل فى هؤلاء الأسرى الذين لا يستفاد من قتلهم شىء له مردود يتطلع اليه، وقد يهديهم الله الى الاسلام ويصيرون عضدا للمسلمين.

اما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا رسول الله لقد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك من بلدك فأرى ان تمكننى من فلان قريب له، فأضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه العباس، وعليا من اخيه عقيل، وهكذا حتى يُعْلم انه ليس فى قلوبنا مودة للمشركين وما أرى ان يكون لك أسرى يا رسول الله فاضرب اعناقهم ، فهم صناديد قريش وأئمتهم وقادتهم .



وفى الترمذى وغيره أنه بعد سماع النبى صلى الله عليه وسلم هذين الأمرين علق عليهما فقال : ان الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللين، وان الله ليشدد قلوب اقوام حتى تكون أشد من الحجارة ،وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم حين قال : **﴿فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم﴾** ومثل عيسى حين قال : **﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن**



تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (المائدة ١١٨) ومثلك يا عمر مثل نوح حين قال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا﴾ (نوح ٢٦ ، ٢٧) ومثل موسى حين قال: ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ (يونس٨٨).

وهذا التعليق فيه مدح من النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه، حيث جعل رأى أبى بكر كرأى ابراهيم وعيسى، ورأى عمر كرأى نوح وموسى، وليس الدافع لكل منهما على اختيار رأيه الا اعزاز الدين، ثم مال الى رأى ابى بكر وأعلن ذلك على المسلمين لحاجتهم الى المال، واختار الفداء على القتل ، فنزل قوله تعالى : ﴿ ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتهم عذاب عظيم، فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾ (الأنفال ٦٧ ـ ٦٩) .



وظاهر هذه الآيات يفيد تخطئة النبى صلى الله عليه وسلم فى اختياره رأى ابى بكر، وتعليل ذلك بالطمع فى عرض الدنيا، والحقيقة ان الآيات



لا تعدو ان تكون عتابا للنبى عليه الصلاة والسلام، وتلفت النظر إلى أنه لا ينبغى لنبى أن يستبقى الأسرى بدون قتل، فى مقابل فداء يأخذه إلا بعد ان يذل الكفر ويفل حزبه، ويعز الاسلام وينتشر ، ويكون المسلمون فى أمن تام على عقيدتهم وأموالهم وأنفسهم، فالمسلمون بقبولهم الفداء اخذوا متاع الدنيا والله يريد لهم ثواب الآخرة، وهو عزيز ينصر أولياءه، حكيم يعلم ما يليق بكل حال ، ولولا ان حكم الله سبق فى اللوح المحفوظ ان المجتهد لا يعاقب على اجتهاده وان أخطأ ،لأصابهم عذاب عظيم فى قبول المسلمين للفداء، وتقرر الآيات اخيرا ان ما اخذه المسلمون حلال ، وعليهم رعاية تقوى الله الغفور الرحيم،



فالآيات عتاب رقيق من الله سبحانه للنبى صلى الله عليه وسلم على مبادرته الى الاجتهاد، فكان ينبغى الانتظار حتى يأتى الوحى، كما جاءه فى الأنفال ، وقد قال كثير من علماء الأصول: يجوز للنبى ان يجتهد فيما لم ينزل فيه وحى ، وقد يجد نفسه مضطرا الى الاجتهاد فى الأمور العاجلة بالذات، ويجوز ألا يوفق فى الاجتهاد فهو بشر، وعدم التوفيق يشفع فى تخفيف وطأته كون الاجتهاد بعد الشورى وتبادل الآراء فمن تؤنس فيهم الحكمة والرأى



السـديـد، غير أن الخطأ فى الاجتهـاد لا يقـره الله عليه، بل ينزل الوحى بتصحيحه فى المسألة التى هى موضوع هذا الاجتهاد .

وعتاب الله لنبيـه صلى الله عليه وسلـم ، الذى يصيب المسلمين شىء منه لاشتراكهم فى الحكم، هـو عتـاب على فعل شـىء كـان خـلاف الأولى، وليس على ذنب أو معصيـة ارتكبهـا، فلم يكن هنـاك أمـر معلـوم خـالفـه ولم يتعمـد من وراء اجتهـاده سـوءا، بل أراد خيرا، ووقـوع خـلاف الأولى من الأنبياء لا يقدح فى عصمتهم، وبخاصة إذا كان عن اجتهاد برىء صحيح منهم، وإن كان مقامهم عند الله يجعل ما يتسـامح فيه مع عامة الناس أمرا يلام عليه المصطفون الأخيار.





٢٨ الرسول ومبدأ المساواة

حدثت عدة وقائع فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم نزلت بسببها آيات تتلى فى القرآن الكريم، والناظر الى ظاهر هذه الآيات ربما يفهم منها أنه عليه الصلاة والسلام كان يعمل للطبقية حسابا ويود أن يصبغ بها بعض تصرفاته فى ميدان الدعوة ، فقد روى مسلم عن سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه قال: كنا ستة نفر، فقال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، ـ قال : وكنت انا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما، فوقع فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله ان يقع ،فحدث نفسه، فأنزل الله تعالى : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم



بالغداة والعشى يريدون وجهه، ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنّ الله عليهم من بيننا اليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ (الأنعام ٥٢ ، ٥٣).

وجاء فى رواية احمد : ان الملأ من قريش قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : ارضيت بهؤلاء، وفى رواية ابن جرير: أهؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا، انحن نصير تبعا لهؤلاء؟! اطردهم فلعلك ان طردتهم ان نتبعك ، فنزلت الآيتان المذكورتان.



ومثل هذه الروايات قيل فى سبب نزول قوله تعالى: **﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا. وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾** (الكهف ٢٨ـ٢٩) .

وبعد نزول هاتين الآيتين التمس النبى صلى الله عليه وسلم ــ كما جاء فى عدة روايات ــ قوما يذكرون الله، فوجد منهم ثائر الرأس وجاف الجلد وذا الثوب الواحد، فجلس معهم وقال :



الحمد لله الذى جعل فى أمتى من امرنى ان اصبر نفسى معهم .

يفيد ظاهر هذه الآيات والأحاديث ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يريد أن ينزل على ارادة كبار قريش، فى تنزيه مجلسه عن الفقراء من المؤمنين لعلهم يأنسون اليه ويؤمنون به، ولاشك ان تلبية رغبة هؤلاء هو تطلع من النبى الى زينة الحياة الدنيا بمجالسة الكبار والسادة والاشراف، وعدم تقدير المؤمنين الذين آثروا ذكر الله وعبادته على الرغم مما يلقون من الاضطهاد والعنت، وهل يتفق هذا مع ما جاء يدعو اليه النبى صلى الله عليه وسلم من المساواة وجعل التقوى والايمان مقياس الكرامة والشرف ، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ **إن أكرمكم عن الله أتقاكم**﴾ (الحجرات ١٣) .

والجواب : ان الذى حدث من النبى صلى الله عليه وسلم عند هذا العرض ، هو مجرد حديث نفس كما جاء فى رواية مسلم، وحديث النفس تجاوز الله عنه فكل انسان يتعرض له، والمهم انه لم يقع منه ذلك الذى جال فى الخاطر وتحدثت به النفس، ومعلوم ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يود ان يسلم هؤلاء الكبار له تقديرا لمراكزهم ، وأثرها فى انتشار الدعوة ، لأن الاتباع فى غالب الأحوال على دين رؤسائهم ومتبوعيهم،



فلو أسلم من هؤلاء، نفر قليل اسلم بإسلامهم مئات وآلاف، ولو أفرد لهم مجلسا لهذا الغرض ما كان بذلك بأس، وفقراء المؤمنين لا يخشى على ايمان من آمن منهم عن رغبة وصدق ، فهو يكلهم مؤقتا الى ايمانهم حتى يفرغ من مجالسة هؤلاء ليعود اليهم بقلب الوالد والمربى والمدافع عنهم. فكأنه صلى الله عليه وسلم كان يوازن بين امرين فى كل منهما خير ، وذلك الاجتهاد يقدح فى نبوته وعصمته ، حتى لو أدى الاجتهاد الى غير المطلوب.

ومع كل ذلك فقد كان هذا حديث نفس لم يصل الى درجة الهم والفرح، ونبهه الله الى خطورته لو نفذ، لأن هذا الاجراء ـ فى الظاهر ـ قد يتخذ مادة للدعاية ضد الدعوة الاسلامية فى مبادئها الانسانية الأصيلة، وقد اعلمه الله ان هؤلاء الذين طمع فى اسلامهم اغفل قلوبهم عن ذكره واتبعوا أهواءهم وكان أمرهم فرطا، فلن يسلموا حتى لو نفذ لهم ما يريدون .



وبهذا التصوير لم يحدث منه صلى الله عليه وسلم ما يخدش عصمته أو يتناقض مع دعوته. وهناك حادث آخر ذكره كثير من المفسرين ، وهو ان عبد الله بن أم مكتوم، وهو كفيف البصر، دخل فى الاسلام عن صدق، كان يحب مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم لتلقى العلم عنه، فجاءه يوما



والرســـول صـلى الله عليه وسلم منهمـك فى دعوة اشراف قـريش الى الاسلام، يـريد أن يتعلم منـه بعض العلم، فلم يهتم بـه اهتمامه بهؤلاء، فنـزل قـول الله سبحـانـه: ﴿**عبس وتـولى أن جـاءه الأعمى**﴾ إلى قوله: ﴿ **أما من استغنى فأنت له تصـدى، ومـا عليك ألا يزكى وأمـا من جـاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنـه تلهى، كلا إنها تذكرة** ﴾ (سورة عبس) .

روى الترمـــذى وغيره هـــذا الحادث كسبب لنـزول الآيات المذكـورة ، والمتأمل فيهـا يجد أن ظـروفهـا وبـواعثهـا كـالتى نـزلت بها الآيـات الســابقة، من اهتمام النبى صلى الله عليـه وسلم بدعـوة الكبار أمـلا فى إيمان اتباعهم ، وأمـا من وثق بإيمانهم فإن لهم مجالا آخر للاستزادة من العلم بعـدمـا أحـرزوا منـه مـا يكفى فى رسـوخ الايمان، وليس صنـع النبى صلى الله عليـه وسلم بدافع الاحتقـار والازدراء لابن أم كلثوم وأمثـاله من الضـعفـاء، فهو صلى الله عليـه وسلم اقـرب اليهم وهم أقـرب اليـــه، فقـد نشأ بينهم فقيرا فى المال، غنى النفـس بـــالإبـــاء والشمـم، رضـى الأخلاق بحسن المعاملة والأمـانة والصدق، وهو يعتـز بهذه القيم وبكل مـن تحلى بها، بعيـدا عن التأثـر بزهـرة الحيـاة الدنيـا فى مالها وحسبهـا وجاهها،





والآية تعطينا ارشادا للدعاة والمصلحين ان يتنبهوا الى الحساسيات فى معاملة الناس، ويبتعدوا عن كل ما يبعث على الظنة، ويترفعوا عما يثير حولهم الزوابع حتى لو كان مقبولا عند سائر الناس، والمعارضات المغرضة تصنع ـ كما يقولون ـ من الحبة قبة، ومن الشبهة حقيقة، كما ان تسجيل هذا الحادث يقوى ايماننا بأن القرآن من عند الله وان محمدا بلغه كما تلقاه، ويجب ان نعلم ان الآيات وأسباب نزولها ليست دعوة الى الفقر والخمول وتمجيدا للفقراء والخاملين، ولكنها دعوة الى عدم وزن الرجال بأموالهم وجاههم وحسب، بل بالقيم العالية ومكارم الأخلاق، ولو انضم الى المال ايمان والى الجاه تقوى كان الخير كل الخير :

وما أحسن قول الشاعر :

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا

وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

اللهم إنا نعوذ بك من الفقر الا اليك، ومن الذل إلا لك ، ومن الخشية إلا منك .



٢٩ الرسول ومبدأ العدالة

يقول الله سبحانه : ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها إذاهم يسخطون ﴾ (التوبة ٥٨)

توجه هذه الآية اتهاما للنبى صلى الله عليه وسلم بالمحاباة وعدم العدل فى العطاء ، وهذا الاتهام ليس موجها إليه من أعدائه الظاهرين وهم الكفار ، الذين يحاولون تشويه سمعته لصرف الناس عنه ، بالافتراءات والأكاذيب ، ولكنه اتهام موجه من بعض من تظاهروا بالاسلام وقلوبهم منعقدة على الكفر ، يندسون مع المؤمنين دفعا للتهمة عنهم ، وانتهازا لفرص الكسب من ورائهم ، وهم كما جاء فى وصفهم، بدت البغضاء من أفواههم



وما تخفى صدورهم أكبر، إن نالهم خير من وراء التظاهر بالاسلام سكتوا، وإن لم ينالوا طعنوا فى تصرف الرسول صلى الله عليه وسلم معهم، ولم يسلموا ويرضوا، كما يسلم ويرضى المؤمنون الصادقون.

والخطر من المنافقين أشد من خطر الكافرين، لعدم التنبه إلى أساليبهم الخبيثة، وقد حدث، كما قالت كتب السيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم لما فتح الله عليه مكة ومَنّ عليه بمغانم كثيرة من هوازن، وكان معه فى الجيش مسلمة أهل مكة الذين دخلوا فى الاسلام، بدأ أولا بإعطاء هؤلاء عطاء كثيرا، كأبى سفيان الذى أعطاه أربعين أوقية من الفضة ومائة من الابل، ومثل ذلك لكل من ولديه، وبعد أن فرغ من إعطاء هؤلاء قسم ما بقى على الناس.



وهذا العطاء هو من السهم الذى جعله الله للنبى صلى الله عليه وسلم، كما قال بعض الفقهاء، ولذلك لم يستأذن فيه الغانمين، وكان القصد منه تأليف قلوب هؤلاء وقومهم على الاسلام، وتقوية شوكة الدين، وقد وقع هذا الفعل موقعه، حتى قال بعض من نالهم هذا العطاء : لقد أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنه لأبغض الخلق إلىّ، فمازال يعطينى حتى إنه لأحب الخلق إلىّ، فما ظنك بعطاء قوّى



الاسلام وأهله وأذل الكفر وحزبه ، واستجلب به قلوب رءوس القبائل والعشائر ، الذين إذا غضبوا غضب لغضبهم أتباعهم ، وإذا رضوا رضوا لرضاهم .

ومثل هذا العمل لا يجوز أن يعاب، ففيه الحكمة والمصلحة والعدل ، ويرد به على ذى الخويصرة التميمى وأحزابه ، الذين قالوا له صلى الله عليه وسلم : اعدل فإنك لم تعدل ، هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، يقول ابن القيم : إن هؤلاء من أجهل الخلق برسوله ومعرفته بربه وتمام عدله، وإعطائه لله ومنعه لله، وما فعله عليه الصلاة والسلام ليس عبثا ولا قدَّره سدى، بل هو عين المصلحة. ولقد أتم نعمته على قوم ردهم إلى منازلهم برسوله صلى الله عليه وسلم يقودونه إلى ديارهم، وأرضى من لم يعرف قدر هذه النعمة بالشاة والبعير، كما يعطى الصغير ما يناسب عقله ومعرفته، ويعطى العاقل اللبيب ما يناسبه وهذا فضله، وليس هو سبحانه تحت حَجْر أحد من خلقه، فيوجبوا عليه بعقولهم ويحرموا، ورسوله منفذ لأمره سبحانه .



إن ابن القيم يشير بذلك إلى ما رواه ابن اسحق وغيره عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :

لما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا



الكبار فى قريش وفى قبائل العرب ولم يكن فى الأنصار منها شىء، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة وقال قائلهم : لقى والله رسول الله قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة وأخبره بذلك، فجمعهم عليه الصلاة والسلام وقال فيما قال لهم :

يا معشر الأنصار، مقالة بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها فى أنفسكم.. أوجدتم علىّ يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم.. واستمر يتحدث إليهم حتى بكوا أسفا على ما حدث، وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظا.



إن توجيه تهمة الانحياز والمحاباة إلى النبى صلى الله عليه وسلم بعيد كل البعد عما عرف عنه من وقوفه مع الحق، حتى لو كان ذلك على خاصة نفسه وأقرب الناس إليه، وموقفه معروف من عدم محاباة الشريفة التى سرقت، وأقسم أن فاطمة بنته لو سرقت لقطع يدها، وهو الذى كشف عن بطنه ليقتص منه من طعنه بعود فى خاصرته، وتوزيع المال على من يرى المصلحة فى تخصيصهم بجزء منه، لم ينله منه شىء حتى يتهم بأنه يعمل لنفسه، وكيف وهو الذى وقف

أمــام المال الذى وصل من البحــرين ولم يفارقــه حتى وزعه على أصحابــه، ولم يبق لنفسه شيئا، وكان صـائما وأفطر على خل كان فى بيته .

إنه هو الذى لم يعط فاطمة بنته غلاما يكفيها الطحن بالرحى التى آذت يديها، وآثر أهل الصفّة عليها، وزودها بذكـر لله يروح عن نفسـها ويملأ قلبها رضا وطمانينة .

إن رب العزة سبحانه يقـول لمن لمزوه وعابوه فى قسـم الصدقات: ﴿**ولو أنهم رضوا مــا آتاهم الله ورسولــه وقالــوا حسبنا الله سيـؤتينا الله من فضلــه ورســولـــه. إنــا إلى الله راغبــون**﴾ (التوبة ٥٩). يعنى لــو أنهم فعلوا ذلك لكان خيرا لهم، فهو يــوجههم إلى قيمة القنــاعة، التى تعطى فى العاجــل رضـا النفس والإطمئنــان إلى ثواب الله فكفى بــه عطاء، وفى الآجل سيكون العـوض من فضل الله ورسوله فى مناسبـات أخرى، وما أكثر نفحـات الله يغمــر بها القلوب المؤمنــة والنفـوس الراضية.



لقد كنت فى نزاهتك يــا رسول الله أرفع من أن تتطلع نفسك إلى لُعَـــاعــة من الــدنيـــا، وكنت فى سخــــائك وجــودك تعطى عطـــاء من لا يخشى الفقـــر، وكم آثــرت على نفسك وأنت المحتـــاج، فعلمت أصحابك كيف يكـون الإيثار، ولا يعرفك حق المعرفة إلا مــن درس سيرتك بصدق، وتفقه



فى سنتك حق التفقه، ولا عذر للمسلمين وقد تيسرت لهم وسائل الثقافة الصحيحة، ولا مجال بعد ذلك لطعن يوجه من عدو يبغى زعزعة ثقة مسلم بنبيه، فالمعرفة مصل واق من ميكروب الشك، والتخلق بأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم حياة بقربه وأنس بجواره، وهو بالتالى حياة للقرآن الذى عاش له وبه، وإذا عاش القرآن والسنة النبوية فى عقل المسلم وقلبه وسلوكه، سعد وسعد به مجتمعه الذى يتجاوب معه، وكان حصنا قويا تتكسر دونه سهام الطاعنين، كما قال سبحانه: «**وكان حقا علينا نصر المؤمنين**» (الروم ٤٧).





٣٠ هل سحر النبي صلى الله عليه وسلم؟!

الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين بشر يجوز عليهم كل ما يجوز على سائر الناس من الأعراض البشرية التى لا تؤدى إلى نقص فى مراتبهم العالية ولا تتنافى مع رسالتهم الإصلاحية، ومن هذه الأعراض الأمراض البدنية غير المنفرة أو العائقة عن ممارسة مهام الدعوة، ومن هذه الأمراض ما يكون أثرا للأعمال السحرية، بتسلط الأرواح الخبيثة على قواعد معروفة لمن يمارسون السحر.

وكان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم رجل عربى حليف لليهود، دخل الإسلام منافقا، كان يمارس السحر، واسمه لبيد بن أعصم من بنى زريق، جاءت الروايات الصحيحة أنه أصاب

الرسول عليه الصلاة والسلام بشره، كما رواه البخارى ومسلم، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر، حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن، فقال: يا عائشة، أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى، فقال الذى عند رأسى للآخر: ما بال الرجل؟

قال :مطبوب.. أى مسحور، قال: من طبه؟ قال لبيد بن أعصم رجل من بني زريق حليف لليهود، كان منافقا، قال: وفيم؟ قال: فى مشط ومشاطة. قال: وأين؟ قال: فى جف طلعة ذكر، تحت راعوفة فى بير ذروان. قالت: فأتى البئر حتى استخرجه، فقال : هذه البئر التى أريتها كأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رءوس الشياطين، قال: فاستخرج، فقلت: أفلا تنشرت؟ أى تعوذت أو نشرت الخبر، فقال: أما الله فقد شفانى، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرا.



وفى رواية للبخارى عن عائشة قالت: حتى يخيل أنه فعل الشىء ولم يفعله. وروى أحمد عنها قالت: لبث النبى صلى الله عليه وسلم ستة أشهر يرى أنه يأتى ولا يأتى.

وفى رواية لأحمد والنسائى ما يفيد أن جبريل أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بالخيط المعقود



فى بئـر كذا عمل بـه السـحر، فأرسل من أتى بـه فجىء بـه، وحل العقـد، فقـام رسـول الله كأنما نشط من عقال، فما ذكـر ذلك لليهودى ولا رآه فى وجهه حتى مات.

والمشـاطـة هى الشعرالـذى يتسـاقط عنـد تسريحه، والجف هو وعاء طلع النخل، أى غلاف اللقاح، والراعوفة حجـر فى أسفل البئر يقوم عليه المستقى، وبئر ذروان جـاء بلفظ ذى أروان وهو أصح كما قـال النـووى [1] فبعـد ذكـر الحديث المتفق عليـه عن عـائشة قـال النـووى فى شرح صحيح مسلم: وقـد أنكـر بعض المبتدعـة هـذا الحديث، فـزعم انه يحط منصب النبـوة ويشكك فيها، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع. قال: وهذا الـذى ادعاه هـؤلاء المبتدعـة باطل، لأن الـدلائل القطعيـة قـد قامـت على صدقـه وعصمتـه فيما يتعلق بالتبليغ، والمعجزة شـاهدة بذلك. وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل، فأما ما يتعلق ببعض أمـور الـدنيـا التـى لم يبعث بسببهـا، ولا كـان مفضـلا من أجلها، وهـو مما يعرض للبشر، فغير بعيـد أن يخيل إليـه أنـه وطىء زوجـاتـه وليس بواطىء، وقـد يتخيل الإنسان مثل هـذا فى المنام،

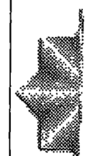


(١) وقد أنكر هذه الحادثة الجصـاص من أئمة الحنيفة (أحكام القرآن ج ١ ص ٥٥ طبعـة ١٣٤٧) وأنكره محمـد عبده فى تفسير جـزء «عم» وسلم بعض العلماء بهذه الحادثة.



فلا يبعد تخيله فى اليقظة، ولا حقيقة له. وقيل: إنه يخيل إليه أنه فعله وما فعله، ولكن لا يعتقد صحة ما تخيله، فتكون اعتقاداته على السداد.

ثم مضى النووىُ فى الحديث فقال : قال القاضى عياض : وقد جاءت روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه ، لا على عقله وقلبه واعتقاده ، ويكون معنى قوله : حتى يظن أنه يأتى أهله ولا يأتيهم ، أى يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهم ، فإذا دنا منهن أخذه السحر فلم يأتهن ولم يتمكن من ذلك ، وكل ما جاء فى الروايات من أنه يخيل إليه أنه فعل شيئا ولم يفعله فمحمول على التخيل بالبصر ، لا بخلل تطرق إلى العقل ، وليس فى ذلك ما يدخل لبسا على الرسالة ، ولا طعنا لأهل الضلالة .



هذا ما ذكره النووى ونقله عن غيره ، وفيه تسليم بوقوع حادثة السحر وأنه مرض تأثر به جسد النبى صلى الله عليه وسلم كسائر الأمراض ، ولا يخل بعصمته ولا يتنافى مع رسالته ..

ويقول ابن القيم فى زاد المعاد : قد أنكر طائفة من الناس هذا الحديث ، وقالوا لا يجوز عليه ، وظنوه نقصا وعيبا ، وليس الأمر كما زعموا بل هو من جنس ماكان يعتريه صلى الله عليه وسلم



من الأسقام والأوجاع ، وهـو مرض من الأمراض وإصابته به كإصابته بالسم لا فرق بينهما .

هـذا ، وقـد أخرج البيهقى فى كتـابـه: «دلائل النبـوة» أن الله سبحـانه أنـزل فى هـذه الحادثـة سـورتى المعـوذتين ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم كلما قـرأ آية انحلـت عقدة من عقـد الخيط الإحدى عشرة، والنفاثات فى العقد هن الساحرات الـلاتى ينفثن فى عقـد الخيط ، ويراد بهن بنـات لبيـد المذكور ، كما يـراد بهن كل من أراد سـوءًا بالناس . والوسواس الخناس هو الشيطان الذى يخنس ويتأخر عن القلب كلما ذكر الله.



وبعـد ، فإن الـذين أنكروا هـذه الحادثـة مع اتفـاق شيخى الـروايـة عليهـا ، يعـز عليهم أن يصـاب النبى صلى الله عليه وسلم بالسحر ، ولكن إذا عرف أثر السحر عليـه بالتوضيح الذى سبق نقلـه عن أفـاضل العلماء ، لايجوز لنـا أن ننكـر حديثـا ثـابتـا بقوة ، فإن فتـح هذا البـاب يهيىء فرصة لقصار النظر ، ومن عَدِمَ التعمق فى الفهم أن ينكر كثيرا مـن الاحاديث الثابتـة ، وكم تشكك بعض الناس فى بعض الثـابت عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، ثم أثبتت الكشـوف العلمية الحديثة صـدقه، فلا ينبغى أن نتعجل فى الإنكـار ، فقـد يتعـدى نطاقـه السنـة إلى نطـاق القـرآن، وهو مـا يسعى إليـه المبطلون . وكبـار



العلماء الســابقين لم يقصروا فى شرح النصــوص بما يتفق وصــدق رسول الله صـلى الله عليه وسلم وعصمته ، والعقـول تتفاوت وفـوق كل ذى علم عليم .

أسأل الله أن يثبت قلــوبنـا على الايمان ، وأن يعيـذنـا من شر الــوسـواس الخنـاس ، الـذى يوســوس فى صدور النـاس من الجنـة والناس ، وأن يلهمنا الرشد والصواب ، إنه سميع مجيب.

﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .



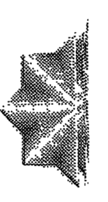
الفهـــرس

صفحة



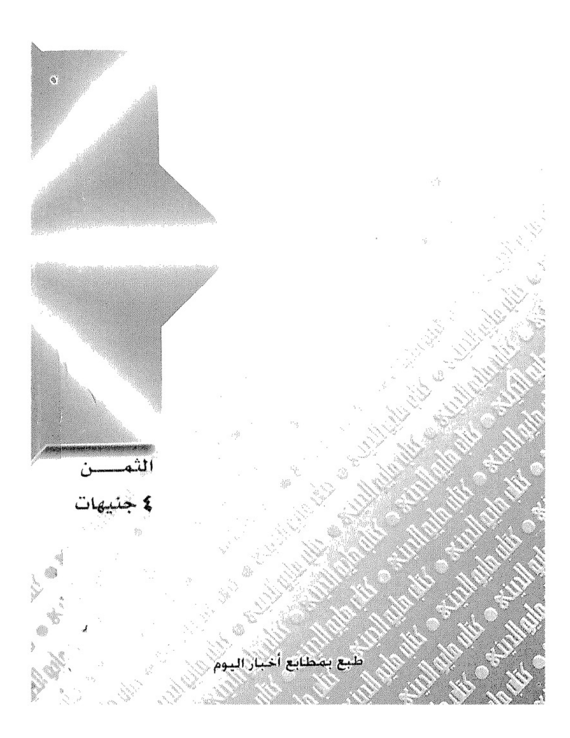


صفحة



رقم الايداع ٧٦٤٤ / ٩٧
الترقيم الدولى .I. S. B. N

977 - 5152 - 21 - 6



طبع بمطابع أخبار اليوم